مُقَدِّمَة

يمثل جلال الدين السيوطى نمطا متميزا من أنماط علماء المسلمين فى القرون ما بعد الوسيطة، ونعنى بها الفترة الزمنية التى حكم فيها المماليك مصر والشام والحجاز وعددا من الأطراف، هذا النمط المتعدد الثقافات، المتنوع أسباب المعرفة، الآخذ من كل علم بنصيب كبير، الضارب فى كل ميدان بسهم أو سهام.

لقد اشتهر جلال الدين السيوطى بلقب الإمام، وهو لقب يطلق على النابهين من علماء السنة الذين أسهموا بالاجتهاد فى علوم الدين، وكانت لهم فى الشريعة نظرات متميزة، وفى الفقه فتاوى سليمة، غير أن نشاط السيوطى لم يقف به عند العلوم الدينية وحدها من علوم قرآنية وتفسير وحديث ورواية وفقه وأصول، وإنما امتد نشاطه العلمى إلى اللغة والنحو والتاريخ والتراجم والطبقات، والأدب من نثر وشعر، إنشاء وإبداعا، فهو - والحال كذلك - مفسر فقيه حافظ محدث أصولى لغوى نحوى مؤرخ أديب كاتب شاعر، ولقد ألف جلال الدين مئات الكتب فى هذه الفنون، ومن ثم فهو من المكثرين فى التأليف، حتى إن تلميذه محمد بن على الداودى أحصى مؤلفاته بنحو من خمسمائة كتاب ورسالة، غير أن الأمر الجدير بالذكر أن الباحث المغربى أحمد الشرقاوى إقبال قد أصدرمؤخرا كتابا بعنوان«مكتبة الجلال السيوطى» ضمنه عناوين مؤلفاته، وكتب تعريفا بكل مؤلف، فإذا هى تزيد على السبعمائة. ثم زاد عددها بعد ذلك إلى أن ناهز الألف.

على أن الشىء الجدير بالذكر أيضا هو أن مؤلفات السيوطى لا تصلح جميعا لأن يطلق عليها لفظ كتب، صحيح أن بعضا من كتبه يتكون من عدة مجلدات، ولكن

الصحيح أيضا أن بعض مؤلفاته يقع فى صفحة أو صفحتين، وأن بعضا آخر يقع فى بضع عشرة صفحة؛ ومن ثم وجب أن يأخذ الدارسون جانب الحذر حين يظنون أن هذا العدد الضخم من العناوين التى خلفها السيوطى يشكل جميعه ما يمكن أن يطلق عليه لفظ كتب، وعلى الرغم من ذلك فإن ما ألفه السيوطى من كتب كبيرة الحجم نفيسة المحتوى يضعه دونما جهد أو تجاوز فى قائمة كبار المؤلفين المكثرين من علماء المسلمين.

إن مائدة الإمام السيوطى - والحال كذلك - مائدة حافلة خصبة، متعددة الألوان سائغة الطعام، ومن ثم فإن خاصة الدارسين والمحققين ينبغى أن يقتربوا منها أكثر وأكثر. صحيح أن عددا كبيرا من مؤلفات السيوطى قد قدم للناس محققا مطبوعا، وأن عددا آخر قدم غير محقق، فشابته المآخذ وتعددت فيه الأغلاط، ولكن الصحيح أيضا أن عددا من المؤلفات النفيسة للسيوطى لا يزال مخطوطا لم تلمسه يد، ولم يقترب منه دارس أو محقق، مع ما تضم دفاته من علم نافع ومعرفة أصيلة وثقافة عريقة. وكتاب «كوكب الروضة» يعد واحدا من تلك المخطوطات التى تنطبق عليها تلك الصفات من نفع وأصالة وعراقة.

إن كتاب « كوكب الروضة » - على ما سوف نفصل بعد قليل - مختص بالتعريف بجزيرة الروضة فى نيل القاهرة تعريفا شموليا، من النواحى التاريخية والجغرافية والأدبية، وكل ما له صلة بها من داخلها أو من حولها، كالقلاع والقصور، والجوامع والمصانع، والبساتين والأزاهير، والمقياس والنيل ومواسم فيضانه أو غيضه، وكسر الخليج والاحتفالات به، والأسماك والسفن، وغير ذلك مما يتصل بالجزيرة أو النيل من قريب أو بعيد، شعرا ونثرا، على مسيرة تاريخ جزيرة الروضة حتى عصر السيوطى.

مخطوطات الكتاب:

إن عددا غير قليل من مخطوطات « كوكب الروضة » موفور فى المكتبات العامة والخاصة، فى العالم العربى وتركيا وبعض الدول الأوربية، ولقد وقفنا على تسع

نسخ منها تختلف تواريخ نسخها بين القدم والحداثة، كما يتفاوت خطها بين الحسن والرداءة، ويتغاير نقلها بين الدقة والإهمال، ويتراوح عدد ورقاتها بين الطول والقصر تبعا لحجم الورق المستعمل ومساحته.

وقد يجمل بنا أن نشير فى سرعة وإيجاز إلى تلك النسخ التى سعينا للاطلاع عليها واقتنينا بعضا منها لمكتبتنا الخاصة:

- المخطوطة رقم ٢٦٣ تاريخ، دار الكتب المصرية، وتقع فى مائتين وإحدى وسبعين ورقة من القطع المتوسط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٠٦ هـ.
- المخطوطة رقم ٥٠٣٧ تاريخ، دار الكتب المصرية، وتقع فى مائة وثمان وثمانين ورقة من القطع الكبير، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٠٩ هـ.
- المخطوطة رقم ٢٦٤ تاريخ، دار الكتب المصرية، وتقع فى مائة وأربع وسبعين ورقة من القطع الكبير، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٧٢ هـ.
- المخطوطة رقم ٥٥٤ تاريخ، المكتبة التيمورية، وتقع فى ثلاثمائة وأربعين ورقة من القطع الصغير، وهى رديئة الخط كثيرة الأغلاط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٢٤ هـ.
- المخطوطة رقم ٥٢١ تاريخ، المكتبة التيمورية، وتقع فى مائتين وسبع عشرة ورقة من القطع المتوسط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٧٣ هـ.
- المخطوطة رقم ١٢٠٥ تاريخ، المكتبة التيمورية، وهى ثلاثمائة وستون ورقة من القطع الصغير، وقد تلف عدد من صفحاتها الأولى وضاع عدد من صفحاتها الأخيرة، ولا يعرف تاريخ كتابتها.
- المخطوطة رقم ٣٠٦ تاريخ، رواق الشوام بالأزهر، وتقع فى مائتين وخمس وسبعين ورقة من القطع المتوسط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٣٣ هـ.

- المخطوطة رقم ٣١٤ تاريخ، مكتبة الأزهر، وتقع فى مائتين وست وخمسين ورقة من القطع المتوسط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠١٠ هـ.

- المخطوطة رقم ٧١٣، طوبقبو سراى بإستامبول، وتقع فى مائتين وثمان وسبعين ورقة من القطع المتوسط، وهى بدون تاريخ.

على أن الشىء الذى يدعو إلى الأسف الشديد هو أن هذه النسخ جميعا مليئة بالأخطاء، التى كان سببها أمية النساخ وجهلهم بالقراءة الصحيحة، أو القيام بعملية النسخ بشكل عفوى عشوائى دون إعمال للعقل أو تنبيه للفكر.

إن صفحة واحدة من صفحات النسخ التسع التى أسلفنا الإشارة إليها لا تكاد تخلو من بضعة أخطاء، وأحيانا تتزاحم الأخطاء فى صفحة واحدة لتصير بضعة عشر خطأ، وأحيانا أخرى لا يستطيع الناسخ قراءة لفظ فيترك مكانه مساحة بيضاء فارغة. وإن بعض هذه الأخطاء مما يصعب تصويبه حتى مع مقابلة النسخ بعضها ببعض، ومناط التصويب فى هذه الحالة يكمن فى الخلفية الثقافية للقارئ أو المحقق، يستمد بعض أسبابه من منطق تركيب الكلمة ومعقولية السياق، وها نحن نسوق أمثلة للأخطاء جمعناها بشكل عشوائى من خمس صفحات متتالية من واحدة من أفضل النسخ المخطوطة:

« الأشار » وصحتها: الآثار. « الحين » وصحتها: الحسين. « أى » وصحتها: ابن. « النـزير » وصحتها: الزبير. « بيدوا » وصحتها: يبدو. « انساد الحى » وصحتها: نساء الحى. « زابة » وصحتها: رأيه. « معددات القرآن » وصحتها: مفردات القرآن. «العفنى» وصحتها: العقبى. « يدى » وصحتها: بيتى، فى الحديث الشريف: « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ». « فى موحولها » وصحتها: فيـما حولهـا. «السما» وصحتها: المساة. « برايـك » وصحتهـا: يريـك. «فعوبت فى ذلك» وصحتها: فعوتب فى ذلك. « الأيبج » وصحتها: الأريج.

هناك صعوبة أخرى تصادف القارئ والمحقق على مساحة كـل النسخ المتاحة فى المخطوطة، تلك هى أن أكثر القصائد والمقطوعات الشعرية قد كتبها النساخ موصولة الأبيات وكأنها نثر وليست شعرا، ذلك أن النساخ لم يستطيعوا التفرقة بين الشعر والنثر، فاختلط الأمر عليهم، خاصة أن الكتاب يضم كثيرا من النصوص النثرية، فى إطار رسائل مرصعة ومقامات مصنوعة ومحاورات مسجوعة، ناهيك عن تشويه النصوص الشعرية التى تحتاج إلى كبير مراجعة، والخلط بين أسماء الشعراء الذين هم من الكثرة بمكان ومن الوفرة بمقدار.

ولكن ينبغى التنبيه إلى أن أكثر النسخ انضباطا من حيث شموليتها - بغض النظر عن الأغلاط التى نبهنا إليها - هى المخطوطة رقم ٢٦٣ تاريخ، المحفوظة بدار الكتب المصرية؛ لأنها منقولة عن المخطوطة التى استنسخها لنفسه محمد بن على بن أحمد الداودى - تلميذ السيوطى - من نسخة شيخه سنة ٩١٠ هـ. أى فى حياة السيوطى وبإذن منه، وذلك قبل وفاته بعام واحد.

وعلينا أن نعود مرة أخرى لتحديد المخطوطات التى اعتمدنا عليها مع ذكر مزيد من الإبانة والتوضيح.

١- المخطوطة رقم ٢٦٣ تاريخ، بدار الكتب المصرية، التى مر ذكرها قبل سطور قليلة، وتقع فى مائتين وإحدى وسبعين ورقة من القطع الكبير، بخط نسخ معتاد، وتاريخ انتهاء نسخها سنة ١٠٠٦ هـ، وناسخها هو محمد بن نعيم بن محمد شرف الدين البلبيسى الحنفى، عن نسخة بخط تلميذ السيوطى، وهو شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى المالكى فى مجالس آخرها ضحوة يوم السبت من شهر ربيع الثانى سنة ٩١٠ هـ، من خط الإمام السيوطى رحمه الله تعالى.

وقد اتخذنا هذه النسخة أصلا فى مقابلات النسخ بعضها ببعض؛ لأنها أقدم النسخ وأقلها سقطا.

٢- المخطوطة رقم ٥٠٣٧ تاريخ، بدار الكتب المصرية، وتقع فى مائة وثمان وثمانين ورقة من القطع المتوسط، بخط نسخ واضح، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٢٢هـ، وهى مأخوذة من نسخة الداودى تلميذ المؤلف، وناسخها هو عمر ابن أحمد بن عمر الدمسيسى. ولم نرمز لها فى مقابلاتنا - لتطابقها مع النسخة الأصل - إلا فى مواضع قليلة أشرنا إليها فى مكانها فى بعض الفروق.

٣- المخطوطة رقم ٢٦٤ تاريخ، بدار الكتب المصرية، وتقع فى مائة وأربع وسبعين ورقة من القطع الكبير، بخط نسخ معتاد، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٧٢ هـ وهى مأخوذة - أيضا - عن نسخة الداودى، وناسخها حسن باشا. وقع بها أغلاط غير قليلة. وقد رمزنا لها بحرف (ب).

٤- المخطوطة رقم ٣٠٦ تاريخ، المحفوظة برواق الشوام بالأزهر، وتقع فى مائة وسبع وتسعين ورقة من القطع المتوسط، بخط فارسى، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠١٦ هـ، وناسخها عبد السلام ابن الشيخ عمر بن جمال الدين الشهير بابن الصيرفى، وهى منقولة أيضا عن نسخة الداودى المالكى. وقد رمزنا لها بحرف (ج).

منهج العمل فى تحقيق الكتاب:

أولا: مهدنا لتحقيق الكتاب بعمل دراسة مفصلة حول محتوى الكتاب وتحليله ومنهج المؤلف فيه، مبينين اشتمال الكتاب على علوم مختلفة من الأدب بأنواعه، والتاريخ والخطط، والتفسير والحديث والفقه، وغير ذلك من علوم العربية، كما هو شأن الإمام السيوطى باعتباره عالما متبحرا فى علوم كثيرة.

ثانيا: قسمنا تعليقنا وتحقيقنا للكتاب إلى حاشيتين:

الحاشية الأولى: أثبتنا فيها الفروق بين النسخ المخطوطة، وصدرنا تلك الحاشية بالأرقام العربية، وكان المنهج فيها كالتالى:

١- قمنا بعمل مقابلات بين النسخة الأصل والنسخ الأخرى التى أشرنا إليها، وأثبتنا ما فى الأصل إلا أن يكون اعتراه تصحيف أو خطأ من الناسخ، فنختار الصواب من النسخ الأخرى مبينين سبب ذلك فى موضعه غالبا.

٢- رجعنا فى تحقيق الكتاب وضبط بعض نصوصه - فى بعض المواضع - إلى الموارد التى استقى منها الإمام السيوطى مادة كتابه، وذلك فى حالة الضرورة عند صعوبة وضوح بعض الألفاظ فى النسخ المخطوطة، أو عند تطابق تلك النسخ فى كلمة أو جملة غير منسجمة مع السياق، فنثبت ما ورد فى النسخ الخطية فى متن الكتاب، باعتباره خطأ قديما كما يقول علماء رواية الحديث، ونشير إلى ما ورد فى تلك الموارد فى حاشية الفروق.

الحاشية الثانية: صدرناها بالأرقام اللاتينية؛ للمغايرة بينها وبين الحاشية الأولى، وأثبتنا فيها:

١- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها فى القرآن الكريم، بذكر اسم السورة ورقم الآية فيها.

٢- تخريج الأحاديث الواردة فى متن الكتاب وتوثيقها من مصادرها الحديثية مع إيراد الحكم على هذه الأحاديث من قبل الحفاظ والمحدثين، إذا لم يذكر الإمام السيوطى ذلك.

٣- توضيح معانى الكلمات الغريبة، وشرح بعض المصطلحات الخاصة بعلوم اللغة والشريعة، مما أورده الإمام السيوطى فى صلب الكتاب.

٤- التعريف بجل الأعلام الذين ورد ذكرهم فى متن الكتاب.

٥- عمل فهارس متنوعة فى آخر الكتاب تسهل الرجوع إلى الموضع المراد فيه.

منهج الكتاب ومصادره:

الإمام السيوطى صاحب دربة فى التأليف وخبرة فى التصنيف، فهو من أوفر علماء المسلمين تأليفا ومن أخصبهم إنتاجا، وتتسم كل كتبه بدقة التنظيم وسلامة

المنهج. وإن الذى يراجع كتبه فى اللغة والنحو مثل: المزهر، وهمع الهوامع، والاقتراح، أو فى التاريخ مثل: حسن المحاضرة، وتاريخ الخلفاء، أو فى الطبقات مثل: بغية الوعاة، وطبقات المفسرين، وطبقات الحفاظ، أو فى الفقه مثل: الأشباه والنظائر، وغيرها من كتبه الأخرى - سوف يجد عالـما حاذقا فيما يكتب، متقنا لما يؤلف، صاحب منهج متسق وخطة مدروسة.

فإذا ما كان الأمر متعلقا بكتاب « كوكب الروضة » فإن الاتجاه فى هذه الزاوية يكون مختلفا بعض الشىء، بمعنى أن المؤلف لم يقسم هذا الكتاب إلى أبواب أو فصول، وهو المنهج الذى التزمه المؤلفون - ولا يزالون - ومن بينهم السيوطى نفسه، ولكنه اكتفى بعناوين جانبية لكل موضوع من موضوعات الكتاب، تلك الموضوعات التى تتراوح بين الطول والقصر على الرغم من كثرتها.

أما من الناحية الموضوعية فإن السيوطى كان ملتزما المنهج العلمى فى كتابه من ناحيتين أساسيتين: الناحية الأولى تتعلق بإيراد كل ما يتصل بجزيرة الروضة من قريب أو بعيد، من خلال دراسة أصيلة جادة ذات شقين أحدهما تاريخى والآخر أدبى، وقد وشحهما بين الحين والآخر بمسحة لغوية أو فقهية حديثية، وليس ذلك بمستغرب من عالم كالسيوطى، فقد كان الرجل لغويا كبيرا، وفقيها عظيما، وحافظا ثقة، بل ربما تجاوز السيوطى هذه الميادين جميعا فأضفى على الكتاب مسحة جغرافية وأخرى أثرية معمارية فى بعض المناسبات، فضلا عن الوجه الحضارى الذى يوشى به المؤلف كتابه من أوله إلى آخره.

من الملامح اللغوية فى الكتاب ما ذكره السيوطى عن لفظة « الروضة » ومعناها ولغاتها، والأمثال التى قيلت فيها، وأشعار العرب فى ذلك. وقد استهل السيوطى كتابه بهذا الملمح اللغوى، بل إنه اتخذ عنوان الكتاب من واقع الاستعراض اللغوى للفظ الروضة، إذ يقول: « وفى الصحاح وغيره: كوكب الروضة نورها ». ويستطرد قائلا: « وبه سميت هذا الكتاب ». ولقد بدا هذا الملمح بشكل جزئى فى المقامة البحرية التى ضمنها هذا الكتاب مع عدد آخر من مقاماته الأدبية ورسائله الفقهية.

أما ملامح العالم الفقيه المحدث فهى أكثر وضوحا من ملامح العالم اللغوى، لأنها احتلت مساحة أكبر فى مواطن متعددة من فصول الكتاب وصفحاته، فقد اهتم السيوطى بحكم إقامة فريضة الجمعة فى الجزيرة، وهل تعد الجزيرة بلدا مستقلا بذاته أو لا، واستعرض السيوطى الأمر فى ضوء الأحكام الفقهية فى بحث طويل انتهى إلى صحة إقامة الجمعة بها لأنها بلد مستقل عن مدينة الفسطاط، ولأنها صارت فى عهد العبيديين (الفاطميين) مدينة عامرة لها وال وقاض، وأنه كان يقال: مصر والقاهرة والجزيرة.

ومن الملامح الفقهية أيضا رسالته « الجهر فى منع البروز على شاطئ النهر، وسبب وضع الرسالة أن أحد أصحاب البيوت فى الجزيرة قد برز ببناء بيته على شاطئ النهر، فأصدر السيوطى فتواه ببطلان ذلك مستندا إلى آراء الأئمة الأربعة وفقهاء المذاهب، وذكر نقول الشافعية والمالكية والأحناف والحنابلة، ولم يقف الأمر بالسيوطى عند إصدار فتواه من خلال رسالته تلك، بل عـاد فنظم الفتوى فى قصيدة طويـلة أسماها « النهر لمن برز على شاطئ النهر ».

ومن الطرائف الفقهية أيضا التى ضمنها السيوطى كتابه « كوكب الروضة » موضوع إباحة إفطار الصائم المسافر فى السفن ضمن فصل طريف عنوانه «ذكر المراكب والسفر»، ولقد أفتى السيوطى بإفطار المسافر بحرا بالسفينة، ثم انتهز المناسبة فأورد الحديث الشريف الخاص بركاب السفينة التى حاول أحدهم فتح ثقب فيها وضرورة أن يضرب المسافرون على يديه حتى لا يغرقوا جميعا.

وحول حرمة هدم المساجد وقطع الشجر المثمر والنخل يورد السيوطى خبرا عن الملك الصالح أيوب أنه لما بنى القلعة بالروضة قطع من الموضع الذى أنشئت فيه ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه، وخرب قصر المختار وقصر الهودج، وهدم ثلاثة وثلاثين مسجدا، ثم عاد الملك وأمر بهدم مسجد كبير لكى يبنى مكانه قاعة فخمة، وبالفعل هدم المسجد وعمرت القاعة مكانه وكملت، ثم قدم الفرنج على الديار المصرية، وخرج الملك الصالح مع

عساكره إليهم فتوفى بالمنصورة، فلم يدخل القاعة حيا، وجعل جثمانه فى مركب وأتى به إلى الروضة، فوضع فى تلك القاعة التى بنيت مكان المسجد مدة إلى أن بنيت له التربة التى دفن بها. ولعل السيوطى بإيراده الخبر على هذا النحو كان يحذر الحكام من العدوان على بيوت الله، مذكرا إياهم بسوء العاقبة. على أن السيوطى لم يكتف بذلك وإنما لجأ إلى تشجيع الملوك والحكام على بناء المساجد فأعطى عناية خاصة لأخبار ركوب السلاطين إلى الروضة لبناء المساجد وتعميرها.

والسيوطى كحافظ محدث لا يدخر وسعا فى ذكر الأحاديث النبوية الشريفة كلما كانت المناسبة تقتضى ذكرها أو تسمح به، فقد أورد الأحاديث التى رويت عن الخضرة والماء والوجه الحسن، وأورد جميع الأحاديث التى ذكرت فيها عبارة « روضة من رياض الجنة »، كما أورد عددا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى النخيل والتمر، كما ذكر الروايات المأثورة عن المفسرين ورجال الحديث حول إلقاء موسى عليه السلام فى النيل، بل إن السيوطى تجاوز ذلك كله - وهو فى ذلك منسجم مع تكوينه، متسق مع فكره - فأورد أنموذجين لخطبتين فى الاستسقاء فى مناسبة نقص النيل ثم زيادته سنة ٨٢٣ هـ جعل إحداهما بصيغة الاستغفار والثانية بصيغة التكبير.

ومن الملامح الجغرافية فى الكتاب تلك المعلومات التى ذكرها السيوطى حول نهر النيل أنه يطلق عليه « سيد الأنهار » وهو لقب صادق، لأن النيل فى انتظامه فى السير وانضباطه فى مواعيد الفيضان وما يهديه للأراضى التى تقع فى حوضه من الخصب والعطاء يجعل لقب السيادة الذى خلعه عليه السيوطى فى مقام من الصدق ومكانة من الدقة، ومن الطريف أن صديقنا العالم الجغرافى الأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد رحمه الله قد أصدر كتابا عن نهر النيل يحمل ذلك العنوان.

إن السيوطى أفرد فصلا طويلا للنيل جعل عنوانه « ذكر كلام بعض الصحابة والتابعين فى منبع النيل ومخرجه وزيادته »، وأورد فيه كلاما لطيفا لعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار. وعلى سبيل المثال

أن معاوية بن أبى سفيان يسأل كعب الأحبار قائلا: «هل نجد لهذا النيل خبرا فى كتاب الله ؟ فيجيب كعب الأحبار قائلا: « إى والذى فلق البحر لموسى إنى لأجده فى كتاب الله يوحى إليه فى كل عام مرتين، يوحى إليه عند جريه: أن الله يأمرك أن تجرى، فيجرى ما كتب الله له، ثم يوحى إليه بعد ذلك: يا نيل عد حميدا».

ويسوق السيوطى فى مضمار حديثه عن النيل أخبارا كثيرة، بعضها يتسم بالسذاجة أو الطرافة، وبعضها الآخر يتميز بالصدق ويتمشى مع العلم الحديث المنبثق من الاكتشافات الجغرافية الحديثة.

إن عددا كبيرا من الأخبار الساذجة التى ساقها السيوطى منسوبة إلى مصادرها يرتبط بمنابع النيل، فمن هذه الأخبار ما ذكره الجاحظ فى كتاب الأمصار أن كلا من نهرى السند والنيل ينبعان من موضع واحد، واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التمساح يعيش فى كل منهما، ومن ذلك أيضا ما نقله السيوطى من ابن عبد الحكم أن عبد الله بن عمر قال: «نيل مصر سيد الأنهار – وهو القول الذى استهل به السيوطى الكتاب وذكرناه قبل قليل – سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيونا فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله، أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره». وينقل السيوطى من كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردى «أنه ليس فى الدنيا نهر أطول من نهر النيل لأنه مسيرة شهرين فى الإسلام وشهرين فى الكفر وأربعة شهور فى الخراب ومخرجه من جبل القمر خلف خط الاستواء».

على أن السيوطى يأتى من الجانب الآخر بمعلومات دقيقة عن النيل نقلا عن قدامة بن جعفر والشريف الإدريسى، ابتداء من منبعه، وانطلاقا معه فى مساره الطويل عبر الأقطار المختلفة حتى يصب فى بحر الروم، وهو ما نعرفه فى العصر الراهن بالبحر الأبيض المتوسط.

وينطلق السيوطى فى الحديث عن الأحياء التى تعيش فى النيل، فيذكرها بشىء من التفصيل من حيث وصفها وفوائدها ومضارها واستطبابات بعضها، وما روى حولها من أخبار ونوادر، وما قيل فيها من طرائف وأشعار، فيذكر التمساح والسنقور والرعاد وفرس البحر وكلب البحر وشيخ البحر، وهذا الأخير يكون – حسب روايـة السيوطـى – على صورة آدمى وله لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط، وهو مشئوم، فإذا ظهر فى مكان ما دل على القحط.

ولقد اهتم السيوطى فى كتابه بذكر الجوانب المعمارية والمبانى الأثرية فى الجزيرة، مثل الجوامع والمدارس والقصور والقلاع، فتحدث عن كل واحد من هذه الآثار حديثا يضفى ملمحا أثريا على الكتاب، ولعل من الأمور الطبيعية فى هذا المقام ألا يهمل المؤلف الحديث عن الجوانب الأثرية فى الجزيرة ما دام ذلك مرتبطا بها ارتباطا عضويا حسب التعبير الحديث. فمن الجوامع التى بنيت فى الجزيرة يذكر السيوطى جامع المقياس، وجامع غبن – وكان غبن هذا واحدا من خدم الحاكم بأمر الله الفاطمى – وجامع الرئيس، وجامع الفخر، نسبة إلى القاضى فخر الدين ناظر الجيش أيام الناصر محمد بن قلاوون، ويعرف أيضا بالمقسى، وجامع الأشرف قايتباى. ومن المدارس ذكر السيوطى المدرسة التقوية، وكانت خاصة بتعليم المذهب الشافعى، والمدرسة العزية التى بناها عز الدين التركمانى. ومن القصور ذكر السيوطى قصر المختار الذى بناه الإخشيد ليفاخر به قصور بغداد، وقصر الهودج الذى بناه الخليفة الفاطمى الآمر لمحبوبته البدوية التى عافت سكنى قصور القاهرة، وقصر المنتهى الذى كان يتردد عليه الخلفاء الفاطميون، وقصر ومتنـزه الروضة الذى بناه الأفضل ابن أمير الجيوش، وبه سميت الجزيرة. كذلك ذكر السيوطى القلعة التى بناها الصالح أيوب ومراحل بنائها ثم بناءها مرة أخرى، وما قد عاصرت من أحداث أو شاهدت من وقائع، كما ذكر حصن الطولونيين بالجزيرة، وجاء بقصيدة فريدة رثاهم بها سهيل بن العامرى.

إن الأمر الذى لا شك فيه أن السيوطى عمد فى كتابه هذا إلى الإطراف فى مواضع كثيرة منه، مع الإكثار من ذكر النوادر اللطيفة والأخبار الطريفة مما لا يتسع

المقام هنا لذكره أو التمثيل لبعضه، ولكن يجب ألا نهمل تعرضه للحديث عن كل ما يمت إلى الجزيرة بسبب أو أسباب، ويرتبط بها بوشيجة أو وشائج، مثل حكم صلاة الجمعة فى الجزيرة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، أو بروز المبانى على شاطئ النهر، وقد سبقت الإشارة أيضا إلى ذلك، فأصدر فتواه فى المسألة فى شكل رسالة لم يلبث أن صاغها فى منظومة، كما وصف احتفالات المصريين بعيد الغطاس من عهد المأمون إلى عهد الفاطميين؛ لأنها كانت تقام أمام الجزيرة. ولما كان خليج أمير المؤمنين – الذى حفر فى عام الرمادة بين مدينتى مصر والقلزم – يقع منبعه مواجها للجزيرة فقد تحدث عنه الكتاب حديثا مفيدا، ولما كانت شطآن الجزيرة حافلة بالمراكب والسفن الراسية على جانبها فإن السيوطى تناول السفن بحديث لطيف، فأورد الآيات القرآنية التى ذكرت الفلك، وبعض الأشعار التى قيلت فى السفن، مع ذكر بعض الأحداث الطريفة فى هذا المقام، بل إن السيوطى لم يكتف بذلك جميعا، وإنما غلبت عليه طبيعته الفقهية فتعرض لقضية الصيام والإفطار وحكمها على المسافر فى السفينة.

وحيثما جرى الماء توافر السمك ونشط الصيادون، ونهر النيل الذى تتوسطه الجزيرة حافل بأنواع الأسماك الجيدة؛ ومن ثم فإن السيوطى يفرد فصلا قصيرا للحديث عن فوائد صيد السمك وأنواع سمك النيل، ويتمثل فى هذا المقام بعدة نصوص شعرية قيلت فى صياد وفى شبك الصيد وفى السمك نفسه. ولا يكتفى السيوطى بالنماذج الشعرية، وإنما يردد نص رسالة نثرية لطيفة كتبها فخر الدين بن مكانس إلى البدر البشتكى وقد صاد حوتا عظيما بالروضة.

ولما كانت السباحة ضرورية لمن يعيشون على مقربة من الماء فإن السيوطى لم يتردد فى الحديث فى كتابه عن السباحة، وشمر عن قلمه وكتب رسالة أدبية دينية اجتماعية لطيفة أسماها « الباحة فى ذكر السباحة » استهلها بالحديث الشريف الذى توجه به أبو رافع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سائلا: «يا رسول الله، أللولد

علينا حق كحقنا عليه ؟ قال: نعم، حق الولد أن يعلمه (أى أبوه) الكتابة والسباحة والرمى وأن يورثه طيبا».

ومن المعروف أنه لا تكاد تخلو حديقة أو روضة من الذباب والبعوض، كما أن منازل الطبقة الوسطى آنذاك لم تكن تخلو من البراغيث، ولذلك فإن السيوطى يورد نصوصا طريفة عن ناموس الروضة وبراغيثها، ويمضى فيتحدث عن بعض الأطراف غير المسكونة من الجزيرة « الخرطوم » و « المنيل » وهو محلة لا تزال معروفة باسمها إلى يومنا هذا، بل إن السيوطى يتجاوز أحياء الجزيرة وأطرافها إلى الحديث عن أقرب الأحياء إلى الجزيرة من شاطئها الشرقى، وأعنى بذلك دار النحاس، وهو فيما نعتقد الحى الذى كان يعرف إلى عهد غير بعيد بحى « دير النحاس ».

إن ثمة عنصرا مهما نريد التركيز عليه ولفت الأنظار إليه، وهو أن السيوطى إذا كان قد استهدف من تأليفه « كوكب الروضة » أن يجعل منه مصدرا تاريخيا أدبيا للجزيرة، فإنه لم يكن من الجمود بحيث وقف عند الأخبار التاريخية المحدودة والاستشهاد بالنماذج الأدبية المتنوعة، وإنما كان من سعة الأفق التاريخى وعمق الحس الأدبى ورجاحة النظرة الثقافية بحيث استطرد فى نطاق التزامه بالمنهج، ما كان الاستطراد نافعا غير ضار، وتوسع فى إيراد النص والخبر، ما كان التوسع بريئا من شبهة الإضرار بالكتاب أو التقليل من قيمته، ولعله فى هذا الطراز من التأليف أقرب ما يكون إلى الجاحظ فى عدد من ذخائره النفيسة.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الأساس الثانى لكتاب « كوكب الروضة» من الناحية المنهجية كان علينا أن نركز اهتمامنا على المصادر التى استعان المؤلف بها ورجع إليها فى تحصيل مادته العلمية.

إن الحقيقة التى لا مراء فيها أن السيوطى يعد من أكثر المؤلفين أمانة من حيث نسبة كل خبر إلى مصدره وكل معلومة إلى صاحبها، لقد عابه فى ذلك كثير من

الدارسين، فقالوا إنه مجرد ناقل مصنف، وأطراه للسبب نفسه فريق آخر من الباحثين -ونحن منهم- فقالوا إنه عالم أمين. وحتى لو صح ما ذهب إليه الفريق الأول لكان مذهبهم فى جانب السيوطى وليس ضده؛ لأن السيوطى بذكره مراجعه تلك قد وقف بنا على عدد كبير من الكتب، لولاه ما سمعنا بها ولا وصلت أسماؤها إلى آذاننا، تلك واحدة، وأما الثانية فإنه نقل لنا مادة علمية ثمينة فى هذا الكتاب وفى غيره من كتبه الأخرى الكثيرة من كتب وصلت إلينا أسماؤها ولم تصل إلينا مادتها.

ومهما كان الأمر فليس الموقف هنا مخصصا لمحاسبة السيوطى ونقده سلبا أو إيجابا، وإنما الذى نهدف إليه هو التنبيه إلى المصادر التى اغترف منها مادة كتابه، وهى كثيرة من حيث العدد، متنوعة من حيث الموضوع، نفيسة من حيث القيمة. إنها من حيث العدد تقترب من مائة وخمسين مرجعا، ومن حيث الموضوع تتنوع بين التاريخ والخطط والآثار والطبقات والتراجم والسير والتفسير والفقه والسنن والأصول والرحلات والأقاليم والحيوان والأدب ودواوين الشعر ومجموعات النثر، هذا فضلا عن كتب ذات موضوعات متنوعة، ولأن موضوع الكتاب هو جزيرة الروضة، والجزيرة بدورها قطعة من أرض مصر، فإن عددا كبيرا من مراجع السيوطى ينتظم تحت قائمة الكتب التاريخية والأدبية التى اهتمت بتاريخ مصر وآدابها، فضلا عن كتب اللغة والفقه وكتب السنن.

وربما كان من المفيد أن نذكر جانبا من الكتب التى رجع إليها السيوطى فى كتابه واستعان بها فى تأليف « كوكب الروضة »، أو أشار إلى بعضها فى معرض سوقه لمادة كتابه، وهذه الكتب هى:

خطط مصر للقضاعى، عجائب مصر للمؤرخ نفسه، تاريخ مصر لابن ميسر، فتوح مصر لابن عبد الحكم، تاريخ مصر لابن يونس، أخبار مصر وعجائبها لإبراهيم بن وصيف شاه، قوانين الدواوين لابن مماتى، الخطط للمقريزى، السلوك له أيضا، إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى، السجع الجليل فيما جرى من النيل لشهاب الدين بن أبى حجلة، إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلانى، تاريخ

مصر للمسبحى، أخبار النوبة لعبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى، أخبار الزمان للمؤلف نفسه، تاريخ بغداد للخطيب، الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة، تاريخ ابن الجوزى، كتاب العبر للذهبى، حسن السريرة فى بناء الحصن بالجزيرة لأبى عمرو عثمان النابلسى، الكامل لابن الأثير، تاريخ القرطبى، كتاب الأمصار للجاحظ، سجع الهديل للتيفاشى، الطبقات لابن سعد، الدرر الكامنة لابن حجر، الحلى لابن سعيد، إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل لابن المتوج، كتاب الكمايم لابن سعيد، الخراج لقدامة بن جعفر، من دخل مصر من الصحابة لمحمد بن الربيع الجيزى، أعياد الفرس لحمزة بن على الأصبهانى، خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى، صورة الأرض لابن حوقل، كتاب الفلاحة لابن وحشية، عجائب المخلوقات للقزوينى، فض الختام عن التورية والاستخدام لصلاح الدين الصفدى، التذكرة للمؤلف نفسه، الروضة للنووى، الترتيب لأبى العباس أحمد بن مطرف، عمل من طب لمن حب للزركشى، التنبيهات للقاضى عياض، حلية الأولياء للأصبهانى، أدب القضاة للغزى، تفسير الطبرى، تفسير ابن أبى حاتم، الموطأ للإمام مالك، المسند للإمام أحمد، الأدب المفرد للبخارى، الصحيح للبخارى، الصحيح لمسلم، المستدرك للحاكم، المدخل لابن الحاج، السنن لأبى داود، معجم الطبرانى، معجم شرف الدين الدمياطى، شعب الإيمان للبيهقى، الفتاوى لابن الصلاح، ذم الملاهى لابن أبى الدنيا، الطب النبوى لابن السنى، الطب النبوى لأبى نعيم، التهذيب للبغوى، شرح المنهاج للدميرى، شرح المنهاج للزركشى، شرح المنهاج للسبكى، الروضة فى فقه الشافعية لمحيى الدين النووى، جامع الأمثال لأبى على أحمد بن إسماعيل القمى، الأمثال لأبى عبيد، الكامل للمبرد، الروضة للمبرد، الصحاح للجوهرى، مفردات القرآن للراغب الأصبهانى، الأمالى للزجاجى، المجمل للزمخشرى، المحكم لابن سيده، شرح المقامات لسلامة الأنبارى، شرح المعلقات لأبى جعفر النحاس، ربيع الأبرار للزمخشرى، الروض الأنف للسهيلى.

تلك غالبية المصادر التى اعتمد السيوطى عليها أو أشار إليها وهو يكتب «كوكب الروضة »، وهى جميعا من النفاسة بمكان، ولكن عددا كبيرا منها لسوء الطالع الذى منيت به أمتنا قد طواه الزمان، وطوحت به الأيام، وفقدناه بين الكثير الذى ضاع من تراث الآباء وكنوز الأجداد.

مادة الكتاب وموضوعاته:

إن « كوكب الروضة » طبقا لما استهدفه السيوطى من تأليفه كتاب تاريخ وأدب، تناول جميع ما اتصل بجزيرة الروضة فى هذين الحقلين من حقول المعرفة الموصولة الأسباب بتلك الجزيرة من قريب أو بعيد، فقد سكنها السيوطى أكثر من عشرين سنة وأحبها وارتبط بها بحيث لم يكن يفارقها أو يعبر إلى الشاطئ الآخر إلا نادرا، ومن ثم كانت له سكنا بالمعنيين المادى والعاطفى لكلمة » السكن »، فألف عنها ذلك الكتاب وفاء منه لتلك البقعة الجميلة من أرض مصر، ولم يدخر وسعا حتى فى التأنق فى اختيار عنوانه، وهو الكتاب الوحيد الذى ألفه باحث – فيما نرجح – عن تلك الجزيرة التى لا تزال حتى أيامنا هذه تحمل مسحة من السحر وسمة من الجمال على الرغم مما كابدته مصر المعاصرة من تحطيم وتمزيق وتشويه.

يسجل المؤلف فى مقدمة الكتاب الغاية التى سعى إليها بتأليفه « كوكب الروضة» فيقول بعد عبارات من التسبيح والاستهلال بآيات من الكتاب العزيز وعد الله فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات: هذا مجموع حسن فى تاريخ جزيرة مصر المسماة بالروضة، يشتمل على روائع الأخبار، وبدائع الأسجاع والأشعار، سميته « كوكب الروضة ».

وإذا كان موضوع الكتاب هو التاريخ والأدب من نثر وشعر، فإن المتصفح له يجد المادة الأدبية قد طغت على المادة التاريخية طغيانا واضح القسمات، ولكن لا بأس فى ذلك ما دام المؤلف قد سجل اهتمامه بالمادتين، كما أن المتفق عليه فى المنهج التاريخى السليم أن الأدب بشقيه من نثر وشعر يعد مصدرا أساسيا من مصادر المادة التاريخية، وهو أمر مسلم به، فكثيرا ما وقف المؤرخون عند واقعة بعينها استغلق

التعرف على دقائقها واستبهمت بعض جوانبها، ثم لا يلبث نص من النثر – أو قصيدة من الشعر – أن يوضح ما استغلق فهمه ويبين ما استبهم من الأمر.

المادة التاريخية:

يبدأ السيوطى بالحديث عن تاريخ جزيرة الروضة مشيرا إلى موقعها، فيقول نقلا عن المقريزى: « اعلم أن الروضة تطلق فى زماننا على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينة الجيزة وعرفت أول الإسلام بالجزيرة، وجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الخضر، وعرفت بالروضة من زمن الأفضل ابن أمير الجيوش إلى اليوم ».

ولقد لعبت هذه الجزيرة دورا متميزا أثناء الفتح الإسلامى، ذلك أن الروم ظلوا متحصنين بها محاولين الصمود فى مواجهة الجيش الإسلامى بقيادة عمرو بن العاص الذى ضرب حصارا حولها، ثم لم يلبث المقوقس وفلول جيشه أن لاذوا بالفرار، فخرب عمرو بعض أبراجها وأسوارها، واستمرت على تلك الحال إلى أن قام أحمد بن طولون بتعمير حصونها سنة ٢٦٣ هـ. ويعمد السيوطى إلى الوقوف غير قليل عند ذلك الحوار التاريخى الهام الذى جرى بين المقوقس وبين عمرو، وقد حاول المقوقس من خلاله تخويف المسلمين وأن يفت فى عضدهم حتى يعودوا أدراجهم من حيث جاءوا، ثم ذكر الردود الحاسمة التى تلقاها المقوقس من عمرو حتى كتب الله النصر للمسلمين.

ويذكر السيوطى أن الجزيرة كانت متصلة بالجيزة بجسر، وبالفسطاط بجسر آخر، وكان من سكن الجيزة من الصحابة يعبرون يوم الجمعة الجسر إلى الجزيرة ثم يعبرون الجسر الآخر من الجزيرة إلى الفسطاط ليحضروا الصلاة الجامعة مع عمرو ابن العاص فى مسجد الفسطاط، ويذكر السيوطى أن ألف صحابى قد دخلوا مصر مع عمرو وبعده، وكان منهم مائة ممن بايعوا رسول ﷺ تحت الشجرة، ويقرر أن عددا منهم قد اختط دورا بالجزيرة.

ولما كانت الجزيرة قد صارت مركزا لبناء السفن منذ عهد مبكر، وعلى وجه التحديد سنة ٥٤ هـ، فقد تابع السيوطى تاريخ هذه الصناعة التى استمرت الجزيرة

مركزا لها حتى كان عصر الإخشيد فانتقلت سنة ٣٢٥ هـ إلى ساحل مصر، أى ساحل النيل على الفسطاط، وبنى الإخشيد آنذاك القصر والبستان اللذين عرفا بالمختار.

ثم عادت صناعة السفن مرة أخرى إلى الجزيرة فى وقت لم يذكره السيوطى، إلى أن جاء عام ٥١٦ هـ فانتقلت الصناعة بأمر من المأمون البطائحى الوزير إلى مراكز الصناعة القديمة بساحل مصر، وينقل السيوطى من ابن ميسر قوله: « كانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ إلا بالصناعة التى بالجزيرة، فأنكر المأمون الوزير ذلك، وأمر أن يكون إنشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة ». هذا وقد تحدث السيوطى فى عديد من صفحات كتابه عن الأسطول النيلى واصفا سفنه معددا أنواعها، مهتما كل الاهتمام بتدريباتها بالذخيرة الحية طبقا للتعبير الحديث، هذا فضلا عن الرحلات السلطانية على متنها.

ويتناول السيوطى تاريخ ملكية الجزيرة فى فصل لطيف كان محوره الأساسى منصرفا إلى المدرسة التقوية نسبة إلى الملك تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، فقد كانت الجزيرة ملكا لبيت المال، وكان الملك تقى الدين السالف الذكر قد اشترى ما يسمى منازل العز وجعلها مدرسة للفقهاء الشافعية، فرأى بعد ذلك أن يشترى الجزيرة جميعها، وقام بوقفها على المدرسة المذكورة سنة ٥٠٦ هـ، ولقد ظل السيوطى يتابع تاريخ المدرسة ومن ولى أمرها من القضاة والمدرسين، كما تابع ما صارت إليه ملكية الجزيرة بعد أن ضاعت وثيقة الوقفية فتملكها بعض الناس بوضع اليد ثم عاد بيت المال فاستولى عليها.

الطريف فى هذا الموضوع أن السيوطى - كفقيه مؤرخ - يتابع تاريخ ملكية الجزيرة من وقف واستيلاء وإعادة وقف ونزع ملكية وغير ذلك من التطورات التى مرت بالجزيرة والوقفية حتى زمانه، ولقد طلب إليه أن يكتب فتوى فى هذا الشأن ولكنه اعتذر بسبب تركه الإفتاء ثم عاد فقال: «لو أفتيت لأوضحت القضية مفصلة ولأعدت الوقف وثبته على المدرسة التقوية».

كانت قلعة الجزيرة أو قلعة الروضة تمثل جانبا كبيرا فى تكوين الجزيرة، كانت كذلك قبل الإسلام وإبان الفتوح طبقا لما بيناه فى مستهل هذا الفصل، ثم كانت ذات خطر واهتمام حين بناها الملك الصالح أيوب على النحو الذى أشرنا إلى جانب منه قبل قليل، ثم ما كان من أمرها هدما ثم إعادة بناء فى عهد السلطان بيبرس وتوزيع أبراجها على كبار المماليك. لذلك فقد أولى السيوطى القلعة كثيرا من الاهتمام إلى المدى الذى جعله يخص الأوقات التى زينت فيها القلعة بفصل مستقل، فذكر مناسبات التزيين وسنواتها والملوك الذين زينوها. وطبيعى أن تكون أكثر المناسبات التى زينت فيها القلعة هى أوقات الانتصارات العسكرية.

وكان سلاطين مصر يركبون إلى الروضة بين الحين والحين، وكان عبورهم إليها محلا لاهتمام السيوطى وهو يؤرخ للجزيرة؛ ذلك أن ركوبهم إليها كان مرتبطا على الأغلب ببعض الأحداث التاريخية، كما كان متصلا بالإصلاح العام أو بالحياة العامة، فممن اهتم المؤلف بركوبهم إلى الجزيرة الخليفة المنتصر العباسى، والظاهر بيبرس، والسلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر، والسلطان المؤيد شيخ، والملك الأشرف أبو النصر قايتباى الذى يطلق المؤلف عليه لقب سلطان العصر، فقد كان السيوطى يعيش فى زمانه وكانت بينهما مودة، ومن الطريف أن كثيرا من هؤلاء السلاطين كانوا يعبرون إلى الجزيرة لتعمير المساجد أو الأمر بترميم ما تهدم منها، وبهذه المناسبة فإن السيوطى قد خصص فصلا من كتابه للتحدث عن مساجد الجزيرة، وهو ما قد أشرنا إليه فى مناسبة سابقة.

ولما كانت شخصيات الجزيرة المقيمون فيها والوافدون عليها يمثلون جزءا من تاريخها فقد احتفل السيوطى بالترجمة أو التعريف بعدد منهم كلما سنحت فرصة أو حلت مناسبة، لقد تحدث عن كثير من السلاطين والقواد والعلماء ممن ارتبطوا بالجزيرة بسبب أو أسباب، غير أن ترجمة السيوطى لهؤلاء وأولئك لم تكن من الأصالة بمكان لأنه كان ينقلها من كتب التراجم المتداولة.

وجزيرة الروضة محاطة بالنيل من كل جانب، بل إن النيل هو مبعث بهجتها

وسبب وجودها، فليس غريبا والأمر كذلك أن يتحدث السيوطى عن النيل حديثا طويلا مليئا بالطرائف والعجائب. يذكر السيوطى أن نهرا ما لم يسم فى القرآن سوى النيل فى قولـه تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص:٧] وقد أجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا هو نيل مصر. كما يسجل خبرا عن أبى رهم الصحابى يقول فيه: «كانت مصر قناطر وجسورا بتقدير وتدبير، حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها، فيحبسونه كيف شاءوا، فذلك قولـه تعالى فيما حكى من قول فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف:٥١].

ويذكر السيوطى أن الجنان كانت بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعا ما بين أسوان ورشيد « وسبعة خلج هى خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج صف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، وخليج سردوس، جنات متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، والزرع بين الجبلين ».

ولفرط حب السيوطى لمصر يورد آيات قرآنية شريفة ذهب المفسرون إلى أن المقصود بـما جـاء فيها أرض مصر ونيلها. إن السيوطى يذكـر الآيـة الكريمة فـى قـولـه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ [المؤمنون:٥٠] ثم يقول: «إن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يذهب إلى أن مصر هى المقصودة بالآية لأن الربا لا توجد إلا بمصر، والماء حين يفيض تكون الربا وعليها القرى، ولولا الربا لغرقت القرى». ثم يستطرد السيوطى قائلا: «وهذا التفسير هو أيضا لابن عباس». ويمضى السيوطى موردا أحاديث كثيرة فى شأن النيل أغلب الظن أنها موضوعة، كما ساق أقوالا لعدد من كبار الصحابة وأعلام التاريخ مثل عبد الله بن عمر وكعب الأحبار والمسعودى والقضاعى ووهب بن منبه الذى ينسب إليه قوله: «خراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها».

إن الحديث عن النيل والجزيرة يؤدى بالسيوطى المؤرخ إلى الحديث عن المقياس، فكما عرفت الجزيرة بالروضة، فإنها عرفت كذلك بجزيرة المقياس، وكان أول

مقياس بناه المسلمون للنيل حين دخلوا مصر جعلوا مكانه أسوان، وظلت مصر الإسلامية منذ ذلك التاريخ البعيد إلى يومنا هذا حاضنة لمقياس النيل بغير انقطاع، وهذا المقياس هو الذى يحدد وفاء النيل إذا فاض، ويبين خطره إذا زاد، وينذر ببلائه إذا غاض، ولم يحمل عطاءه السنوى المتمثل فى الماء الوفير والطمى الكثير اللذين يزيدان تربة مصر خصوبة ويضاعفان زرعها حصادا، وكانت مصر إلى عهد قريب، وعلى وجه التحديد إلى سنة ١٩٦٦م، تحتفل بمقدم النيل ووفائه احتفالا شعبيا عظيما، وتقيم مهرجانا نيليا فريدا شهدناه وشهده أبناؤنا، وظل الأمر كذلك منذ أن خلق الله الناس على ضفاف النيل إلى أن تم ذبح النيل بإقامة ما يسمى بالسد العالى فى أسوان، فانقطع الاحتفال، وحزنت أرض مصر ثم اعتلت لحرمانها من الخصوبة المجلوبة كل عام، فقل عطاؤها ونقص حصادها.

ويحتفل السيوطى بالمقياس احتفالا كبيرا، ويخصص له عشرات الصفحات المترعة بالأخبار الحافلة بالنصوص الشعرية والنثرية التى قيلت فى وصفه. إن السيوطى يستعرض تاريخ المقاييس النيلية ويذكر أن أول من قاس النيل بمصر هو يوسف عليه السلام، وقد وضع المقياس فى مدينة منف عاصمة مصر القديمة، ولم يفت السيوطى أن يشير إلى أن النيل كان يقاس قبل ذلك بأرض علوة، ويقفز صاحب كوكب الروضة قفزة زمنية طويلة لكى يؤرخ للمقياس منذ الفتح الإسلامى، فيذكر أن عمرو بن العاص بنى مقياسا ببلدة دندرة فى إقليم أسوان بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم وضع عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل أخيه عبد الملك مقياسا فى حلوان، وكانت عاصمة له، ثم وضع أسامة بن زيد التنوخى مقياسا بالجزيرة – التى عرفت بجزيرة الروضة فيما بعد – وهو أكبر هذه المقاييس جميعا، ثم إن المأمون العباسى هدم مقياس الجزيرة ليعيد بناءه ولكنه لم يتمه، فأتمه سنة ٢٤٧ المتوكل ابن أخيه، أى بعد نحو من ثلاثين سنة من وفاة المأمون، ومنذ ذلك التاريخ – والكلام هنا للسيوطى – يقال له المقياس الهاشمى. ثم يمضى السيوطى بعد ذلك فى حديث طويل عن مقاييس النيل وأماكنها وبناتها.

ويصف السيوطى المقياس فيقول: «إنه عمود فى الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع، فى مسجد ينوب فى الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع، ويتولاه من العهد القديم رجل من بنى الرداد ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب ورسم وقرار».

وكانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا، فإذا بلغها الماء أسبل متولى المقياس الستر الخليفى الأسود على شباك المقياس، فإذا شاهد الناس الستر قد انسبل تباشروا بالوفاء واجتمعوا للفرجة من كل ناحية، ثم يكون يوم الاحتفال ويسمى تخليق المقياس، فيسارع الناس إلى إبداء سرورهم بأشكال مختلفة ربما كان التهتك والانفلات من ظواهرها، وقد وصف الشاعر شهاب الدين بن العطار تهتك الناس يوم تخليق المقياس فى هذين البيتين الطريفين:

تهتـــك الخلـــق للتخليـــق قلـــت لهـــم

ما أحسن الستر قالوا الستر مأمول

ســـتر الإلـــه علينـــا مـــا يـــزال فمـــا

أحلـــى تهتكنـــا « والـــستر » مـــسبول

ومن الطبيعى - والأمر كذلك - أن يتحدث السيوطى عن الفيضان، ومن ثم فقد تحدث عن مقاييس النيل حديثا طويلا، سنة بعد سنة يبين فيها ما إذا كان الفيضان معتدلا أو زائدا أو منخفضا، محددا ذلك بالأذرع والأصابع، ويورد فى هذا السبيل نقولا كثيرة طريفة، فمن ذلك ما نقله عن أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى - وكان عاش بمصر مدة - أن المصريين يقولون: « إذا دخل أبيب كان للماء دبيب »، وشهر أبيب هو أحد الشهور القبطية المعتمدة عند الفلاحين فى مواقيت الزراعة إلى يومنا هذا، وقد اخترع الفلاحون المصريون لكل شهر من هذه الشهور مثلا جاريا يعبر عن طبيعة الشهر وارتباطه بالأرض والزرع، يعلق منها الآن بذاكرتى ما يقولون عن شهر برمهات وموعده مع الربيع: « إذا جاء برمهات روح الغيط وهات ».

ويعود السيوطى مرة أخرى ليذكر أن خراج مصر كان يجبى تبعا لمقاييس الفيضان، وكانت الغاية القصوى فى الفيضان ثمانية عشر ذراعا فى مقاييس الروضة، وهذه تساوى اثنين وعشرين ذراعا فى الصعيد الأعلى، وإذا زاد النيل عن ثمانية عشر ذراعا نقص من الخراج مائة ألف دينار بسبب ما يستبحر من الأراضى المنخفضة.

إن وفاء النيل يرتبط به كسر الخليج، وكسر الخليج اصطلاح معروف معناه كسر السد الذى يقع على فم الخليج الذى كان يأخذ ماءه من النيل مقابل جزيرة الروضة – وهذا المكان باسمه لا يزال معروفا فى القاهرة إلى اليوم – ويندفع فى تلك الترعة الكبيرة التى كانت تخترق مدينة القاهرة إلى عهد غير بعيد، ثم ردم وصار مكانه شارع باسم شارع الخليج المصرى، ثم ألغت الحكومة المعاصرة هذا الاسم التاريخى وأطلقت عليه شارع بور سعيد.

يخصص السيوطى فصلا طويلا لذكر يوم الوفاء وكسر الخليج يستهله بذكر أعياد الفاطميين ومواسمهم نقلا عن المقريزى، وهى: أول ليلة من ليالى المحرم، أول يوم من أيام المحرم، يوم عاشوراء، يوم مولد النبى ﷺ، مولد على بن أبى طالب كرم وجهه، مولد الحسن ﷺ، مولد الحسين ﷺ، مولد فاطمة الزهراء، مولد الخليفة الحاضر، ليلة أول رجب، ليلة نصفه، ليلة أول شعبان، ليلة نصفه، ليلة أول رمضان، عشرة من رمضان، سماط رمضان، ليلة الختم، يوم عيد الفطر، موسم عيد النحر، عيد الغدير، كسوة الشتاء، كسوة الصيف (يعنى كسوة الخليفة)، موسم فتح الخليج، يوم النيروز، يوم الغطاس، يوم ميلاد المسيح، خميس العهد، أيام الركوب.

وينقل السيوطى عن المقريزى نكتة لطيفة عن يوم وفاء النيل، تلك هى أن بعض المفسرين ذكر أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى تواعد موسى عليه السلام وفرعون بالاجتماع فيه فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** ﴾ [طه: ٥٩] وقد جرت العادة – والكلام للمقريزى – أن اجتماع الناس للتخليق يكون فى هذا الوقت.

إنه من الوضوح بمكان أن يكون هؤلاء المفسرون ممن ساروا فى ركاب

الفاطميين، وفسروا الكتاب العزيز على هواهم، وعلى النهج الذى يرضى الفاطميين الغلاة، ونحن لا نبرئ المقريزى من إيراده مثل هذه الخزعبلات الفاطمية لأنه كان متعاطفا معهم كل التعاطف.

إن السيوطى يسهب فى وصف المراسم الفاطمية فى كسر الخليج، لأن المراسم كانت جزءا هاما من بناء دولتهم، منها الركوب لتخليق المقياس، ومبيت القراء بجامع المقياس، وتشريف بنى أبى الرداد بالخلع، والخلع على أرباب الدولة من العين والكسوة والمأكل والتحف.

كان الخلفاء الفاطميون يركبون لكسر الخليج ابتداء من سنة ٣٦٢ هـ، وهى السنة التى جاء فيها المعز إلى مصر، وقد ركب مركبا عظيما فى الخليج حتى بلغ بنى وائل – الحى المعروف حاليا بالوايلى – وخلفه وجوه أهل الدولة.

ويسهب السيوطى فى وصف احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج فى العصر الفاطمى، ويذكر الاحتفالات التى كانت تقام فى السرادقات، وخروج الخليفة بكسوة ذهبية خاصة بهذه المناسبة، وكذلك كان أبناؤه يلبسون الكساوى الذهبية، ثم تقام المآدب الزاخرة فى إسراف شديد. والواقع أن السيوطى أورد الكثير من الطقوس والمراسم الغريبة التى كانت متبعة فى تلك الأيام مما ابتدعه الفاطميون، ومثلما وصف السيوطى مراسم كسر الخليج فى عصر الفاطميين فإنه فعل الصنيع نفسه مع الأيوبيين والمماليك مع الفارق الكبير بين طقوس هؤلاء وأولئك.

وواقع الأمر أن المادة التاريخية فى كتاب « كوكب الروضة » المتعلقة بالجزيرة مادة خصبة وفيرة، ولقد كان السيوطى نفسه مصدرا لبعض مواد الكتاب، فلقد كان شاهد عيان للفترة الزمنية التى عاشها، والتى تمثل فصولا متناثرة فى الكتاب، ولكن ذلك كله لا يعفى السيوطى من بعض ما يمكن أن يؤخذ عليه من جانب التقصير حين لم يتحدث عن المماليك البحرية بشكل كاف، وقد كانوا أصحاب دولة عتيدة، وكانت نشأتهم الأولى بجزيرة الروضة ، ومنها جاءت تسميتهم بالمماليك البحرية. كذلك كان على السيوطى أن يتحدث بمزيد من الإيضاح عن الفتنة الكبيرة التى

طرفاها العبيد والترك وجرى فيها اقتتال شديد انتهى باستيلاء العبيد على الجزيرة سنة ٤٥٢ هـ.

هذا وينبغى أن نذكر للسيوطى الفضل لأنه قام بتوثيق كثير من الأحداث بنصوص أدبية من شعرية ونثرية، وهو ما نحاول أن نتناوله من منطلق كونه الجانب الأدبى فى الكتاب.

المادة الأدبية:

الحقيقة التى لا مراء فيها أن المادة الأدبية فى هذا الكتاب تمثل الجانب الأكبر منه، صحيح أن كثيرا من النصوص وردت فى توثيق الأحداث أو لإضفاء مزيد من الأضواء عليها، ولكن الواقع أيضا أن هذه النصوص كانت مادة أدبية بحتة بحيث أضفت على الكتاب صبغة أدبية ربما رجحت الصبغة التاريخية.

إن النصوص الأدبية تنقسم إلى شعر ونثر، وتلك بديهية معروفة، ولكن المتصفح لكتاب « كوكب الروضة » يلاحظ أن السيوطى وازن بين جناحى المادة الأدبية وكأنه كان يمسك ميزانا وهو يقدم هذه المادة أو تلك، وكل من المادتين سيقت فى خدمة الجزيرة، إلا فى حالات نادرة كانت تأخذ شكل الاستطراد.

فإذا ما التفتنا إلى النصوص الشعرية وجدنا السيوطى يتبع فى عرضها والاستشهاد بها منهجا سليما إلى حد كبير، ذلك أن « المقياس » كان أبرز معالم الجزيرة ومن ثم فقد أورد نصوصا كثيرة وطريفة فى وصف الجزيرة والمقياس جرت على ألسنة عشرات الشعراء، فضلا عن تلك النصوص التى أوردها دون أن يذكر أسماء أصحابها، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الشعراء ظافر الحداد، وعلى بن سعيد، وعلى ابن أبى حجلة، وناصر الدين بن أبى بكر بن عمر، والمجير بن تميم، والشهاب المنصورى الذى كان السيوطى يطلق عليه لقب شاعر العصر، جمال الدين على بن ظافر، والقاضى عبد الخالق بن العوف الأخميمى، والبدر البشتكى، والبرهان القيراطى، وصلاح الدين الصفدى، وشمس الدين النواجى، وصدر الدين بن عبد

الحق، وفخر الدين بن مكانس، وعمر بن الفارض على الرغم من تفرغه للشعر الصوفى، وغيرهم.

وطبيعى جدا أن يورد السيوطى نصوصا فى وصف النيل، فالنيل سيد الجزيرة، ومالك أمرها، والمحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، ومن ثم فقد سطر السيوطى على صفحات كتابه فى هذا الموضوع ما يمكن أن نطلق عليه ديوان النيل، وها نحن نسجل أسماء أكثر الشعراء الذين أورد المؤلف نماذج من أشعارهم فى النيل: ناصر الدين بن الحسن بن شاور، محمد بن سهل البلخى، عبد الله بن سرور، أبو بكر الصنوبرى، محيى الدين بن عبد الظاهر، الشهاب المنصورى، أيدمر التركى، أبو القاسم العطار، الرشيدى أبو الربيع، البدر البشتكى، الحافظ بن حجر، الأسعد بن مماتى، ابن الساعاتى، ابن نباته المصرى، أبو الحسن العلوى، القيراطى، ظافر الحداد، تميم بن المعز، ابن أبى حجلة، الصفى الحلى، الزين بن الورد، إبراهيم بن عبدون، المعمار، علاء الدين الوداعى، شمس الدين النواجى، ابن قزل، ابن مكانس، بدر الدين بن الحاجب، ناصر الدين حسن بن النقيب، سراج الدين بن الوراق.

إن السيوطى لم يكن ليكتفى بإيراد نص واحد لكل شاعر من هؤلاء، بل كان يأتى بالنصين والثلاثة، وفى بعض الحالات يورد للشاعر الواحد بضعة عشر نصا مثلما هو الحال مع بدر الدين بن الحاجب، فقد نقل السيوطى من ديوانه ما قد أطلق عليه « مقطعات النيل »، ومثل الشهاب المنصورى، فإن القدر الذى أودوه له يشكل ديوانا كاملا.

تلك النصوص التى ذكرنا أصحابها كانت كلها فى التغنى بالنيل كنهر ذى سحر وفتنة وجمال، وأما المناسبات المتعلقة بالنيل من فيضان منتظم معتدل، أو فيضان مرتفع مغرق، أو آخر منخفض مهلك، فقد حفل الكتاب من ذلك بشعر كثير يتسم بالطرافة وخفة الروح وجمال الإبداع، مما يضيق المقام هنا عن إيراد نماذج منه.

وهناك الاحتفالات التى كانت تقام على شواطئ النيل قبالة جزيرة الروضة مثل عيد النيروز والغطاس وكسر الخليج، وهذه جميعا مناسبات أكثر الشعراء فيها من

القول الجميل، بحيث لم يفت السيوطى أن يتمثل لذلك بكثير من المقطوعات والقصائد التى طرز بها صفحات الكتاب.

ومن متعلقات الجزيرة أيضا بعض أطرافها وأحيائها كالخرطوم والمنيل، وحى دار النحاس المقابل لها، والسفن ترسو على شواطئها، والزوارق تنساح على صفحة النيل من حولها، والصيادون ينتشرون على الضفاف المحيطة بها. إن كل هذه العناصر كانت موحية للشعراء بمقاطع وقصائد من رقيق الشعر وأعذبه، بل إن السيوطى لم يفته أن يورد مقطوعات قيلت فى ناموس الجزيرة – أى بعوضها – وبراغيثها، بل لقد أورد لنفسه بيتين طريفين فى ذم بعوض الجزيرة، فقد قاسى منه كثيرا يقول فيهما:

تبا لناموس يحاكى لسعه شوك العضاة وصوته الناقوسا
يتحسس الفرجات عند هبوبه فاعجب لناموس غدا جاسوسا

لقد أورد السيوطى – فيما أسلفنا ذكره – قدرا كبيرا من شعر الشعراء فى النيل، ونحن نزعم أن كتابا آخر من كتب الأدب لم يزخر بمثل هذا القدر من الشعر النيلى، هذا فضلا عما أورد السيوطى من شعر فى الموضوع نفسه فى كتبه الأخرى، وبخاصة « حسن المحاضرة »، الأمر الذى يجعل كل من كتبوا عن النيل فى الأدب من قدامى ومحدثين عيالا على السيوطى، منه أخذوا، وعنه نقلوا، وقد أغفل أكثرهم ذكر هذا المصدر الجليل.

ولعل حماس السيوطى للجزيرة بخضرتها ورياضها، وحبه للنيل وسحره، قد دفعا به بعيدا بعض الشيء عن موضوع كتابه، إذ لم يلبث أن صنع فصلا لشعر الطبيعة بكل فروعه، ما كان قيل منه فى الجزيرة، وما أنشئ فى غيرها من رياض الأقطار العربية والإسلامية، وما كتب منه فى النيل، وما صنع فى غير النيل من أنهار وبرك وغدران. لقد وضع السيوطى لهذا الفصل عنوانا طويلا وهو « ذكر محاسن مقاطيع قيلت فى الروضات والروض والزهر والنهر والناعورة ».

إن هذا الفصل من كتاب « كوكب الروضة » على الرغم من كون أقل الشعر الذى جاء فيه قيل فى وصف رياض الجزيرة، وأن أكثره قيل فى الطبيعة المصرية، مثل متـنزهات القاهرة، وبركة الفيل، وبركة الحبش، وبركة الرطلى، وأرض الطبال، نقول إنه على الرغم من ذلك فإنه تناول أيضا بعض أشعار قيلت فى وصف الطبيعة فى العراق والعراق العجمى وبلاد الشام والأندلس.

فمن شعراء العراق تمثـل السيوطى لأبى نواس وابن الرومى وصفى الدين الحلى، ومن شعراء العراق العجمى تمثل بأكثر من نص لبديع الزمان الهمذانى، مع كون بديع الزمان كاتبا أكثر منه شاعرا، ومن شعراء الشام تمثل للصنوبرى وكشاجم وأبى فراس، ولو أنه ذكر أبياتا لأبى فراس بدون أن يشير إلى اسمه، وهو أمر يؤخذ على السيوطى؛ لأن أبا فراس أحد أمراء الشعر العربى، ولأن الأبيات موضوع التمثيل من الشهرة بمكان، وهى قوله:

والماء يفصل بين زهر الروض فى الشطين فصلا
كبساط وشى جردت أيدى القيون عليه نصلا

ومن شعراء الأندلس أورد السيوطى نماذج من شعر المعتمد بن عباد، وابن عمار، وأبى بكر البلنسى، وأبى بحر صفوان بن إدريس، وأبى بكر الأبيض الإشبيلى، وأبى الصلت أمية بن عبد العزيز، وعلى بن سعيد المغربى، غير أن الشىء الجدير بالذكر أن النصوص التى جاء بها السيوطى لكل من أبى الصلت وعلى بن سعيد قيلت فى وصف بركة الفيل، التى كانت محتفظة بخضرتها وسحرها ومائها حتى القرن العشرين الميلادى الماضى، على مقربة من مسجد السيدة زينب فى القاهرة، ولقد سكن كاتب هذه السطور فترة من شبابه غير بعيد عن موقع بركة الفيل تلك.

وأما بقية الشعراء فإنهم مصريون وكل موضوعات شعرهم قيلت فى رياض مصر، منهم شرف الدين أبو سالم المقرى، وابن النبيه، والشهاب الحجازى، والشهاب المنصورى، والشهاب الهائم، والشهاب بن أحمد العطار، وابن المشد،

ومحيى الدين بن قرناص، وأبو الفضل بن أبى الوفاء، وابن الساعاتى، وابن نباتة المصرى، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى، وشمس الدين النواجى، وصلاح الصفدى، وأسعد بن مماتى، وتميم بن المعز، وعلى بن ظافر، وابن أبى حجلة، وشهاب الدين الخفاجى، والوزير ناصر الدين بن الحسن بن شاور، وأبو الحسن ابن حيدرة العقيلى، وابن قلاقس، وعلى بن محمد بن حبيب التميمى، ورضى الدين إسحاق بن عبد البارى، وأبو الحسن على بن عبد الكريم المناوى، وعلم الدين أيدمر المحيوى، والأعز بن المؤيد، وعبد الحميد بن عبد المحسن الأسيوطى، والقاضى الفاضل، والبدر البشتكى، وفخر الدين بن مكانس، ومحمد بن أبى بكر بن عبد الرزاق الحنفى، وغيرهم من الشعراء المصريين الذين عاشوا فى العصر المملوكى.

وواقع الأمر أن هذا الفصل من كتاب كوكب الروضة يمثل بدوره ديوانا مختارا من شعر الطبيعة فى الأدب العربى فى مصر، باستثناء النماذج القليلة التى قيلت فى رياض بعض البلاد الإسلامية. لقد أرانا السيوطى فى مختاراته تلك لوحات بهيجة للرياض والبرك والأنهار وأسمعنا خرير الماء فى الغدران والجداول وبكاء السواقى والنواعير، وترنيم البلبل والشحرور، وحفيف الأوراق والأغصان، وأمتعنا بسحر الدوح والروض، وفتنة الورد والنرجس والنسرين والآس والأقحوان مع شميم الشذا ونشق الأريج، من البداهة بمكان ذكر أن هذه النماذج جميعا مليئة بالاستعارات مترعة بالتشبيهات حافلة بالصنعة البديعية التى يسيغها الذوق حينا ويرفضها حينا آخر.

لا يكاد السيوطى ينتهى من تسجيل ديوان الطبيعة هذا الذى مر ذكره، حتى ينتقل إلى جمع ديوان آخر فى شعر الطبيعة بكل موضوعاتها من رياض وأشجار، وزهريات وأثمار، ونخيل وخضار.

لقد صنع السيوطى ذلك الصنيع وخص به جزيرة الروضة وحدها، وجعل عنوان هذا الفصل هكذا: « ذكر الأزهار والفواكه والخضروات الموجودة فى الروضة وما فيها من أشعار »، إنه عنوان طويل لفصل طويل، ولكنه فصل ممتع

غاية الإمتاع، فيه من الجدة شيء كثير، وفيه من الطرافة شيء أكثر، ولكن ينبغى أن نسجل ملاحظتين فى هذا الشأن: الملاحظة الأولى أنه فرغ هذا الفصل من شعر الماء والنهر والضفاف والبرك والغدران والدوح والرياض وهذا أمر طبيعى لأنه أورد من ذلك شيئا وفيرا فى أكثر من فصل من الفصول التى سلفت الإشارة إليها. وأما الملاحظة الثانية فهى ملحظ منهجى يحسب على السيوطى، لأنه أقام سدا بين هذا الفصل الذى يتعلق بالأزهار والفواكه والخضروات الموجودة فى الروضة وبين فصل الطبيعة السالف الذكر، ولم يكن هذا السد الذى باعد بين الفصلين إلا رسالته الفقهية الطويلة « الجهر فى منع البروز على شاطئ النهر »، ولقد خالجنا بعض الشك فى أن يكون موقع الرسالة على النحو الذى احتلته فى الكتاب سببه خطأ النساخ، ولكن هذا الشك تبدد حين وجدنا موضعها هذا فى جميع النسخ المخطوطة التى وقعت تحت نظرنا.

فإذا ما عدنا ثانية إلى هذا الفصل وجدنا السيوطى يستفتحه بذكر أخبار تتحدث عن خيرات مصر وجمالها ورخائها مثل قول عبد الله بن عمرو بن العاص: «من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتثور ثمارها». إن السيوطى يورد فى هذا المقام قول بعض الناس الذى مفاده أنه « يجتمع فى مصر فى وقت واحد ما لا يجتمع بمدينة وذلك: البنفسج والورد والنرجس والمنثور والسوسن وشقائق النعمان والبهار والياسمين والنسرين واللينوفر والنمام والمرزوجوش والريحان والنارنج والليمون والكمثرى والأترج والباقلاء الأخضر والعنب والتين واللوز والموز والسفرجل والرمان والنبق والقثاء والخيار والبلح والبسر والرطب واللفت والقنبيط والسبانخ والقرع والجزر والباذنجان، وكل ذلك يجتمع فى وقت واحد من السنة » ثم يستدرك السيوطى قائلا: «وقلت: وأكثر ما ذكر يزرع فى الروضة ويوجد فيها فى أوقاته من السنة سوى اللينوفر والسفرجل، وفيها زيادة على ما ذكر، شجر الزيتون والعناب والخروب والخوخ والبرقوق والتوت والكباد وقصب السكر والبطيخ والخشخاش ».

بعد أن يقدم السيوطى لهذا الفصل على النحو الذى أسلفنا يمضى فى عرض مختارات من الشعر الجميل بادئا بالشعر الذى قيل فى الفاغية وهى ما يعرف فى مصر بزهر « التمر حناء »، ثم الورد فالنرجس فالآس والأقحوان والبان والريحان والياسمين والنسرين والبنفسج والمنثور والسوسن والشقيق وزهر النارنج والجلنار وزهرة الخشخاش ونور الكتان ونور الباقلاء وزهر اللوز وزهر القطن.

إن هذه الأزهار جميعا كانت تزين بساتين الجزيرة وحدائقها، ولكن ليس بالضرورى أن يكون الشعر الذى قيل فيها لشعراء مصريين وحسب، وإنما كانت النماذج الشعرية لشعراء مصريين وغير مصريين، فيما خلا الأزهار التى لم تكن تنمو إلا فى مصر وحدها، مثل زهرة القطن وتمر الحناء على سبيل المثال.

وفى الفاكهة قدم السيوطى مختارات رقيقة فى وصف البطيخ والتين واللوز الأخضر والنبق والبرقوق والتفاح والكمثرى والجميز والتوت والخوخ والمشمش والعنب وقصب السكر والموز والنارنج. وهى جميعا مقطوعات طريفة، وكان وصف الجميز وقصب السكر مقصورا على الشعراء المصريين. وعن النخل قدم السيوطى مختارات جميلة فى وصف النخلة والطلع والجمار والبسر والرطب مع مجموعة من الألغاز الشعرية فى النخلة والبلح بأنواعه.

وعن الخضراوات يورد السيوطى مجموعات شعرية لطيفة فى وصف النعناع والباذنجان والفجل والجزر والفقوس وسنابل القمح والشعير، والباقلاء والهندبا.

وفى أشجار جزيرة الروضة أورد المؤلف مقطوعات رقيقة فى وصف الأثل والصفصاف والسرو واللبلاب والأترج والكرم.

إن هذا الفصل يمكن أن يشكل بدوره أيضا ديوان شعر مختار لما تنتجه أرض جزيرة الروضة من أزهار وأثمار وخضراوات وأشجار، والنصوص الواردة هنا لمجموعة من الشعراء المرموقين من مختلف الأقطار على ما سبق أن أسلفنا، ولكن أكثرهم كانوا من المصريين. ومن طرائف هذا الفصل أن السيوطى نظم نفسه فى

سلك شعراء الطبيعة وأسهم بأكثر من مقطوعة شعرية كتلك التى أنشأها فى وصف تمر الحناء، وفيها يقول:

كأنما دوحة الحناء إذ فتحت أنوارها وبدت فى عين مرتقب
عروس حسن تبدت فى غلائلها خضرا وقد حليت باللؤلؤ الرطب

لقد أسهم السيوطى إسهاما قليلا فى مواكب الشعر المتزاحمة التى حفل بها الكتاب، وذلك موقف منطقى لأن السيوطى وإن قال الشعر ليس بذى مكانة فى عالم الشعراء إذا ما أريد تصنيفه كشاعر، وأما فى ميدان النثر فقد كان كاتبا مرموقا ذا آثار بارزة فى نطاق الزمان الذى عاش فيه، فهو صاحب رسائل كثيرة ومناظرات غزيرة ومقامات وفيرة، ومن ثم كان إسهامه فى « كوكب الروضة » بفنونه النثرية واضح المعالم بارز القسمات.

فإذا ما كان الحديث عن الفنون النثرية فى « كوكب الروضة » وجدناها على تنوعها أقل حجما من النصوص الشعرية، ولكنها مع ذلك تعالج كثيرا من العناصر الموصولة الأسباب بجزيرة الروضة والنيل، ووجدنا كذلك موضوعات كثيرة عالجها السيوطى بفنه وأبدعها بقلمه تتمثل فى عدد من المقامات ومجموعة من الرسائل.

لقد اشتملت النصوص النثرية على خمسة موضوعات أساسية، وأما ما عدا ذلك فأمور جانبية، أما هذه الموضوعات فهى رسائل البشارات بوفاء النيل، ورسائل لبعض الأدباء فى وصف طوفان النيل حين يتعدى معدل وفائه فيغرق البلاد، ومقطوعات نثرية فنية فى وصف نهر النيل وبهاء منظره وسحر شطآنه ومجراه، مع بعض الألغاز التى تجمع بعض صفاته مظهرا ومخبرا، ثم المقامات التى أنشئت فى وصف الجزيرة والنيل وما يتصل بهما، وأخيرا المفاخرات أو المناظرات التى أنشأها الأدباء فى موضوعات متنوعة وإن اتصلت جميعا بموضوع الكتاب وهو الروضة ونيلها.

فأما رسائل البشارات فكانت تصدر عن السلطان لكى توجه إلى العمال فى مختلف مدن مصر وسورية، يكتبها كتاب الرسائل فى أسلوب أنيق، تبشر الناس بأن النيل قد وفى بوعده، ومن ثم يستبشرون بعام مليء بالخير موسوم بالرخاء مع شكر الله ﷻ ووصف رائق للنيل وهو يجرى، وبيان لمدى ارتفاع الماء عند مقياس الروضة بالأذرع والأصابع، فمن هذه الرسائل ما كتبه القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر نيابة عن السلطان المنصور قلاوون إلى نائب السلطان بحلب، وما كتبه تقى الدين أبو بكر بن حجة عن السلطان الملك المؤيد شيخ إلى العمال.

وكانت رسائل وفاء النيل تصدر أحيانا عن الكتاب لتهنئة السلطان وكبار رجال الدولة، مثلما فعل جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدى حين كتب كل منهما رسالة بليغة يهنئ فيها السلطان بوفاء النيل، ومثلما رسم على منوالهما بدر الدين بن الصاحب فى تهنئة ناظر الجيوش.

إن رسائل وفاء النيل تشكل ظاهرة أدبية فريدة اختص بها كتاب مصر وأدباؤها لفترة زمنية محدودة بالعصور الوسيطة، وكانت هذه الرسائل ميدانا للتنافس فى الإنشاء وتخليق المعانى والصنعة البديعية فى مختلف مظاهرها من تجنيس وتصريع وترصيع وتورية ومقابلة واقتباس.

وكان موضوع العنصر الثانى فى النثر هو وصف النيل حين يزيد عن معدل الفيضان العادى ويتحول إلى طوفان يغرق البلاد ويشتت العباد، لقد أورد السيوطى نصوصا شعرية كثيرة فى هذا الموضوع، وأكثرها إن لم يكن جميعها من الطرافة بمكان، ولذلك فإن الكتاب عمدوا إلى اقتفاء أثر الشعراء فكتبوا الرسائل الكثيرة الطويلة فى وصف طوفان النيل وما أوقعه بالناس من ضرر مفزع وغرق، وأبرز الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع ابن أبى حجلة، ومحيى الدين بن عبدالظاهر، وزين الدين عمر الصفدى، وجمال الدين بن نباتة، وفخر الدين بن مكانس، وهم جميعا من الكتاب ذوى الأقلام المرهفة والأساليب العذبة والصيغ المتنوعة المتصرفة، بل إن كثيرا منهم كان يجمع بين براعة قول الشعر وإجادة كتابة

النثر، وقد قالوا نثرا وشعرا فى هذا الموضوع الذى كان يشغل المصريين على مسرى التاريخ حين يزيد فيضان النيل عن معدله، وقد شهدنا شيئا من ذلك فى الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين حين كان يتطوع أبناء قرى دلتا النيل للوقوف حراسا على شواطئ النيل خشية أن يفجرها الفيضان الكاسح.

وإذا كان الكتاب قد جودوا فى كتابة رسائل تصف الطوفان ومضاره، فقد كان طبيعيا أن يبدعوا فى وصف جمال النيل واستجلاء سحره واستشراف رياضه، تماما مثلما فعل الشعراء معه. وكانت موضوعات النثر قد حاكت موضوعات القصيد منذ وقت مبكر فى مسيرة الأدب العربى، يرجع إلى عصر كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى.

لقد أورد السيوطى عددا من المقطوعات النثرية الرشيقة فى وصف النيل ورياضه للقاضى الفاضل وضياء الدين بن الأثير والأسعد بن مماتى، وغيرهم من الكتاب المصريين أو الكتاب الوافدين، واغتنم السيوطى الفرصة فعمد إلى الاستطراد فأورد بعض المقطوعات النثرية فى وصف الرياض.

ولما كان الشعراء قد أنشأوا ألغازا فى النيل صاغوها شعرا – وقد أورد السيوطى عددا كبيرا منها – فإنه أورد أيضا عددا غير قليل من الألغاز نفسها وفى الموضوع ذاته، ولكنها صيغت فى قوالب نثرية أنيقة، بعضها منسوب إلى منشئها وبعض آخر غير منسوب.

ولقد احتل فن المقامات مكانا رحيبا فى « كوكب الروضة » وأخذ من مساحة الفنون النثرية بنصيب، فقد أورد السيوطى ثمانى مقامات أسهم هو نفسه بثلاث منها، هى المقامة البحرية، ومقامة بلبل الروضة، ومقامة الرياحين، كما أسهم برسالتين طريفتين من إنشائه هما « الباحة فى ذكر السباحة » و« الجهر فى منع البروز على شاطئ النهر » وقد سلفت الإشارة إليهما.

وأما المقامات الأخرى فهى « المقامة الزعفرانية » لشهاب الدين بن أبى حجلة

فى وصف طوفان النيل، ومقامة الشيخ البزاعى، كتبها فى وصف رحلته البحرية الطويلة من مصر إلى عدن سنة ٦٩٤هـ، وكانت سنة غلاء وأمراض لانخفاض النيل، ومقامة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر يذكر فيها مصر ونيلها، ومقامة محيى الدين بن قرناص يرد فيها على القاضى ابن عبد الظاهر، ومقامة ضياء الدين ابن الأثير التى أطلق عليها رسالة الأزهار، وهى وإن كانت فى ظاهرها تشكل مفاخرات بين ستة أزاهير هى النرجس والأقحوان والشقيق والزهرة والبنفسج والورد، إلا أنها من حيث مضمونها وهدفها الأخير تنتهى بمدح السلطان الأشرف مظفر الدين موسى.

فإذا عدنا إلى مقامات السيوطى، وجدناه أنشأ المقامة البحرية سنة ٨٩٧ هـ حين انخفض منسوب النيل ثم عاد فزاد، فوصف الانخفاض على لسان كل من المقرئ والمحدث والفقيه والأصولى والجدلى والصوفى والنحوى واللغوى والمعنوى والبيانى والبديعى والعروضى والكاتب والطبيب والموسيقى والمنطقى والميقاتى والمؤذن، وتقمص شخصية كل واحد من هؤلاء وقلد أسلوبه واستعمل عباراته، ثم عاد بعد أن زاد النيل فوصف الزيادة على ألسنة هؤلاء مرة ثانية، ولقد كان السيوطى بارعا فى هذا اللون من المقامات التى يجرى فيها الحديث فى موضوع بذاته على ألسنة هذا الفريق من العلماء وأصحاب التخصصات.

وأما مقامة بلبل الروضة فإن السيوطى يذكر أنه أنشأها فى وصف الروضة وأطلق عليها هذا الاسم، وهى قطعة من الأدب الرفيع يصف فيها جمال الجزيرة ومرابعها وقصورها ورياحها ومتنـزهاتها، ويرصع المقامة بمختارات من أرق ما قاله الشعراء العرب فى الرياض، كما يجرى السيوطى كثيرا من الفخر على لسان الجزيرة.

وأما مقامة الرياحين فقد عقد فيها السيوطى مجلسا للرياحين والأزهار لاختيار من هو أحق بينهم بالملك، وأخذت الأزهار كل واحدة على حدة تفخر بنفسها بأسلوب أنيق ثم تختم قولها بمقطوعة شعرية قالها فيها أحد شعراء الطبيعة، ثم

احتكموا فى النهاية إلى قاض نزيه، فحكم بالملك للفاغية، امتثالا لحديث شريف يقول: « سيد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغية ».

كذلك احتل فن المفاخرات مكانا مرموقا بين الفنون النثرية، وهذا الطراز من المفاخرات أخذ مكانه فى النثر العربى فى وقت متأخر نسبيا، وكان أوج تألقه فى العصر المملوكى، وهو فن تتفتق فيه المعانى وترق فيه الأساليب ويغلب عليه المرح والفكاهة وربما السخرية أيضا، ولكن السيوطى كان ملتزما غاية الالتزام حين اختار من المفاخرات أو المناظرات ما له علاقة بجزيرته الأثيرة، فأورد مفاخرة بين النيل والبحر المالح للشهاب الحجازى، ومفاخرة بين السماء والأرض للأديب نفسه، ويستدرك السيوطى قائلا: إنه أورد هذه المفاخرة لأن منشئها تعرض فيها للنيل، ومفاخرة بين جزيرة الروضة ومدينة مصر لصلاح الدين محمد بن أبى بكر الأسيوطى، ومفاخرة بين النخل والأعناب لم يذكر اسم الأديب الذى أنشأها، ومفاخرة بين التين والعنب لشمس الدين محمد بن محمد بن المحب، وهى مفاخرة فريدة طريفة جمعت بين فنون النثر والقصيد والمواليا، ومفاخرة بين المشمش والتوت للإمام الحافظ شمس الدين الذهبى، ومفاخرة الورد مع النسرين، ولم يذكر السيوطى صاحبها.

تلك أهم موضوعات النصوص النثرية التى أوردها السيوطى فى مخطوطه النفيس « كوكب الروضة » وجميعها حسبما رأينا - إلا فى القليل - مرتبطة بالجزيرة من قريب على الأغلب ومن بعيد على الأقل، ولقد ضم الكتاب بعض الرسائل الطريفة التى لم نستطع تصنيفها تحت عناصر الفنون النثرية التى تناولناها فيما سلف من سطور.

لقد صاد البدر البشتكى حوتا عظيما فى جزيرة الروضة، فكتب إليه فخر الدين ابن مكانس رسالة يداعبه فيها فى تلك المناسبة، تفيض بالظرف والفكاهة، وكان بين ابن مكانس والبدر البشتكى مراسلات كثيرة فى عدد من المناسبات، ولقد مر بنا أنه - أى ابن مكانس - كتب إلى البدر رسالة فى وصف طوفان النيل.

ومن أهم الرسائل التى ضمها كوكب الروضة أيضا رسالة السيوطى فى السباحة، ومن الضرورى لمن يسكن على شاطئ النيل أن يتعلم السباحة، وقد سبق لنا الإشارة إلى طرافة هذه الرسالة لما استهدفته من اتجاهات دينية أدبية تربوية اجتماعية، ثم إننا لا نجد كبير بأس من أن نعاود الإشارة إلى رسالة (الجهر فى منع البروز على شاطئ النهر) وهى رسالة فقهية كتبها السيوطى للمحافظة على شاطئ الجزيرة من سطو المبانى عليه.

إننا نستطيع فى نهاية هذه الرحلة فى قلب « كوكب الروضة » أن نقرر أنه من الأعمال الجادة الفريدة التى اضطلع السيوطى بعبء القيام بها بين الكثير الجاد من أعماله، فالحق أن الكتاب يمثل جزءا من تاريخ مصر وتاريخ نهر النيل من خلال الكتابة عن الجزيرة، وهو إلى جانب ذلك يمثل عدة دواوين من الشعر وليس ديوانا واحدا، إنها – أى الدواوين الشعرية – ديوان للنيل، وآخر لجزيرة الروضة، وثالث لشعر الطبيعة والرياض، والكتاب إلى جانب ذلك مصدر أصيل للنثر العربى فى مصر فى العصور الوسيطة، كما أنه كشف لنا كثيرا من الأسماء التى كانت مجهولة فى ميدان الإبداع الأدبى، وأسماء أخرى كانت معروفة فى المسيرة التاريخية ولكنها لم تكن كذلك فى المسيرة الأدبية، و « كوكب الروضة » بالإضافة إلى ذلك كله مليء بالطرائف مترع باللطائف، وهو فى الوقت نفسه لم يخل من خرافات ولم يبرأ من أوهام نقلها السيوطى عن عمد حينا وعن غفلة حينا آخر.

إن « كوكب الروضة » فى جملته عمل علمى أدبى كبير، فرغ السيوطى من تأليفه فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثمانمائة، وكان العالم الجليل يشعر بقيمة عمله هذا حين جعل منه شيئا يفتدى، ولا يفتدى من الأشياء إلا كل نفيس، ومن حقه علينا أن نردد بيتيه اللذين ختم بهما « الكوكب » وفيهما يقول:

كتابى « الكوكب » المفدى دقت معان به عزيزه
ألفاظه المشتهاة تحكى من حسنها « روضة » و « جيزه »

هذا ولا يفوتنى أن أنوه بالعون المشكور الذى أسهم من خلاله تلميذنا النابه **الدكتور مجدى عاشور**، بحيث رأيت – تكريما له وتقديرا لجهده المشكور – أن أضع اسمه مقرونا باسمى كشريك فى عملية التحقيق المضنية التى خاض غمارها معى ببسالة عملية وبروح علمية، خاصة أنه لم يكن بعيدا عن تخصصه فى ميدان الدراسات القرآنية.

نسأل الله سبحانه أن يفيض علينا من رعايته الربانية، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

مصطفى الشكعة

مصر الجديدة فى ٢٤ من جمادى الآخرة ١٤٢٦ هـ

٣٠ من يوليو (تموز) ٢٠٠٥ م

obeikandl.com

الورقة الاولى من الأصل

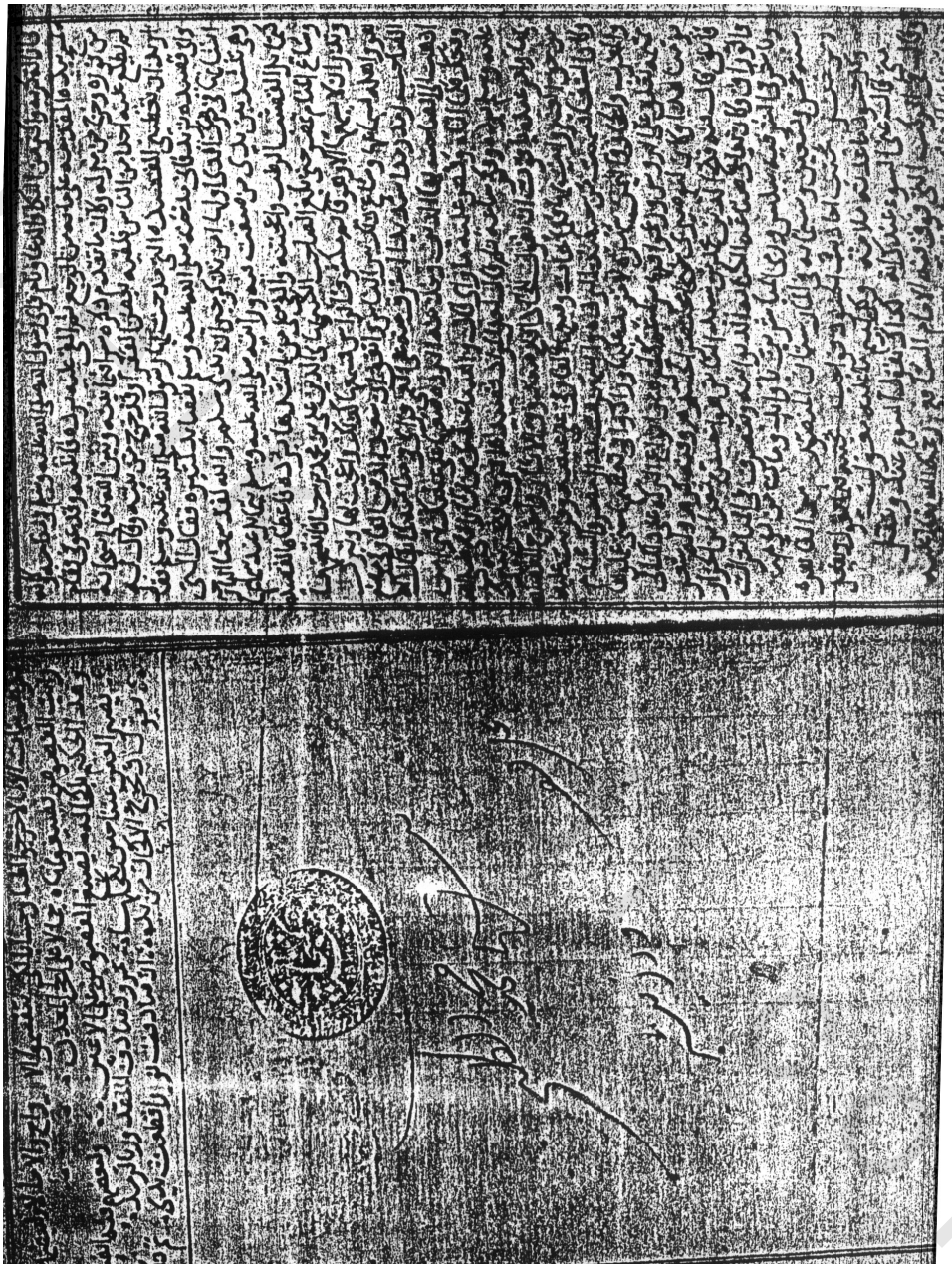

الورقة الأخيرة من الأصل

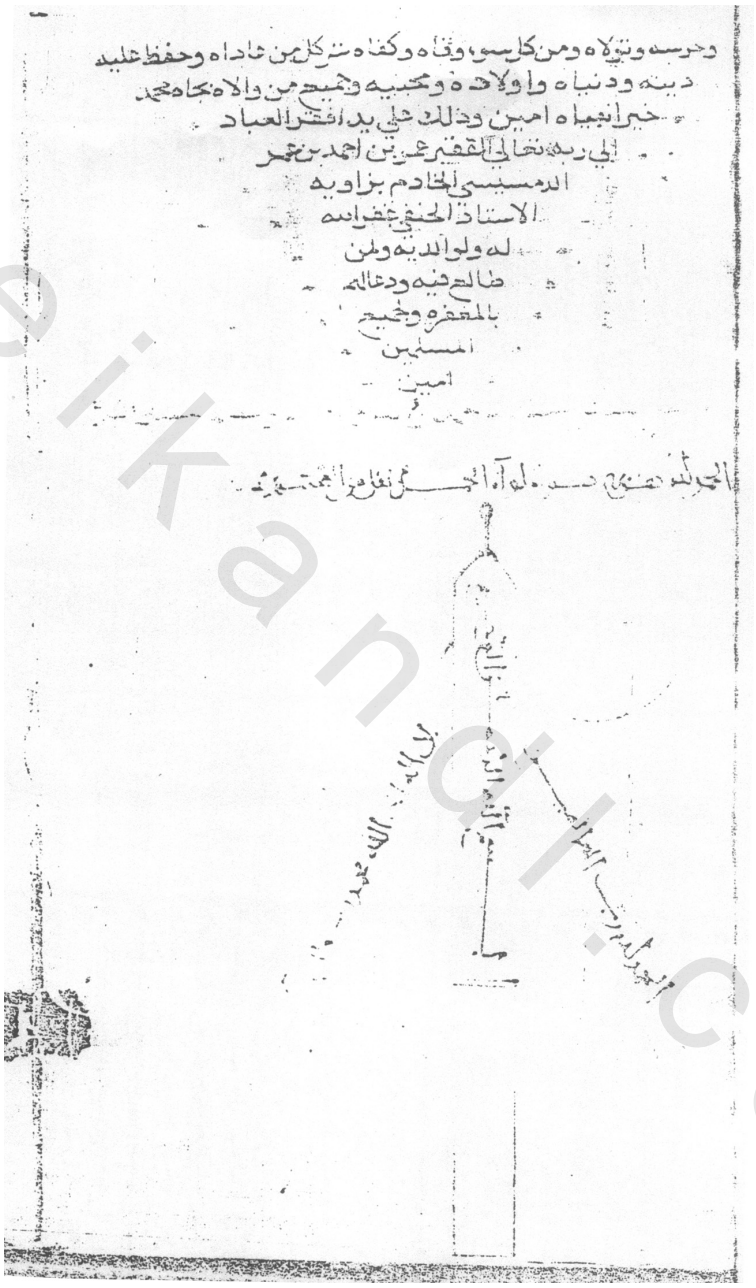
وحرسه وتولاه ومن كل سوء وقاه وكفاه شر كل من عاداه وحفظ عليه
دينه ودنياه واولاده ومحبيه وجميع من والاه بجاه محمد
خير انبياه امين وذلك على يد افقر العباد
الى ربه تعالى الفقير عمر بن احمد بن عمر
الدمسيسي الخادم بزاويه
الاستاذ الحنفي غفر الله
له ولوالديه ولمن
طالع فيه ودعا له
بالمغفره وجميع
المسلمين
امين

obeikandl.com

الورقة الأخيرة من النسخة المطابقة للأصل

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سبحان الله مجري الانهار وفالق الاحبار وخالق الليل والنهار ومزين الحمراء من الشفق بالورد ومن الكواكب بالنهار والحمد لله الذي انزل من السماء ماء فاحيى به الارض بعد الماء واخرج به انواع كل شيء من النبات وانزل من الجنة رحمة لاهل الارض ومنافع سيحون وجيحون والنيل والفرات وجعل النيل سيد الانهار واطولها مسافة في العمران والملوات ووعد الذين امنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات وبعث سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم هاديا لقوم يذكرون وايده بالمعجزات القطعيه لقوم يفقرون فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون واما الذين كفروا وكذبوا بما جاء به فاولئك في العذاب محضرون فصلى الله وسلم على هذا النبي الكريم والرسول العظيم صلاة دائمة حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وحين تظهرون وبعد فهذا مجموع حسن في تاريخ جزيرة مصر المسماة بالروضة يشتمل على روايع الاخبار وبدايع الاشجار والاشعار سميته كوكب الروضة اخذا من قول المصنف صاحب الضياء كوكب الروض نورها واشرقت فيه الادباء عقايق الاداب بلورها ذكر الاحاديث والاثار الوارده في النزهه قال الحاكم في المستدرك وفي تاريخ يتسا بور واحد ثنا محمد بن حمدون الوراق انبانا علي بن محمد القباني انبانا عبد الله بن عبد الوهاب الخزاز رمي انبانا يحيى بن ايوب المغابري انبانا شعيب بن حرب عن مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث يجلين البصر النظر الى الخضرة والى الماء الجاري والى الوجه الحسن اخرجه الديلمي في مسند

الورقة الاولى من النسخة (ب)

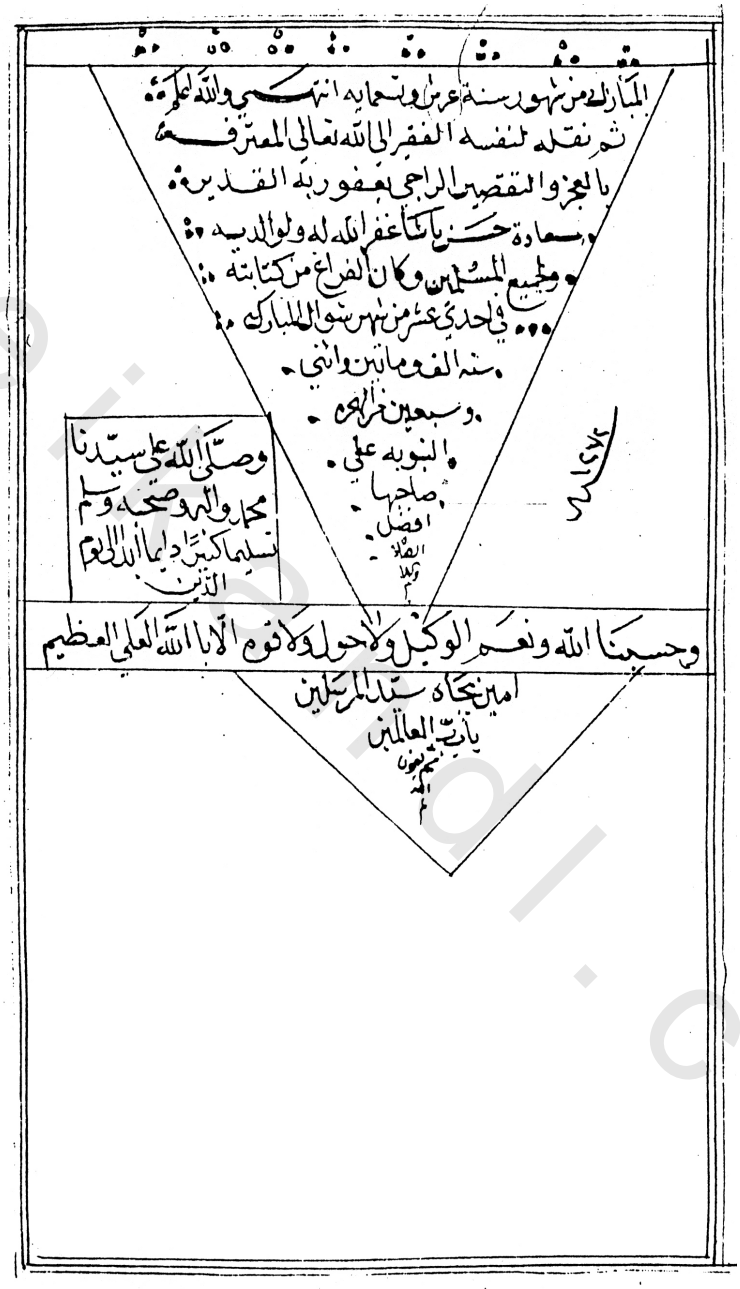

الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

الورقة الأولى من النسخة (جـ)

الورقة الأخيرة من النسخة (جـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

سبحان الله فاتق [1] الأنهار، وفالق الأزهار، وخالق الليل والنهار، ومزين الخضراء من الشمس بالورد، ومن الكواكب بالبهار1، والحمد الله الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات، وأخرج به أنواع كل شىء من النبات، وأنزل من الجنة رحمة لأهل الأرض ومنافع سيحون وجيحون والنيل والفرات، وجعل النيل سيد الأنهار وأطولها مسافة فى العمران والموات، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات، وبعث سيدنا محمدا ﷺ هاديا لقوم يذكرون، وأيده بالمعجزات القطعية لقوم يعتبرون [2]. ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** [3] **وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ** ﴾ 2 وأما الذين كفروا وكذبوا بما جاء به فأولئك فى العذاب محضرون. فصلى الله على هذا النبى الكريم، صلاة دائمة حين تمسون وحين تصبحون، وعشيا وحين تظهرون.

وبعد [4]: فهذا [5] مجموع حسن فى تاريخ جزيرة مصر المسماة بالروضة، يشتمل على روائع الأخبار وبدائع الأسجاع والأشعار، سميته « كوكب الروضة » أخذا من

(١) فى ب: مجرى. وفى جـ: خالق.
(٢) فى ب، جـ: يفترون.
(٣) زاد بعدها فى الأصل: به.
(٤) هذه اللفظة ليست بالأصل.
(٥) هذه اللفظة ليست بالأصل. وفى جـ: هذا.

1 البهار: الشىء الحسن المنير.
2 سورة الروم، الآية ١٥.

قول المصنف صاحب الصحاح 1: « كوكب الروضة: نورها »، وأشرقت فيه للأدباء عقائق الآداب وبلورها [١].

ذكر الأحاديث والآثار الواردة فى النزهة:

قال الحاكم 2 فى المستدرك[٢] وفى تاريخ نيسابور: حدثنا محمد بن حمدون الوراق، حدثنا[٣] على بن محمد القبابى، حدثنا[٣] عبد الله بن عبد الوهاب الخوارزمى، حدثنا[٣] يحيى بن أيوب المقابرى، حدثنا[٣] شعيب بن حرب عن[٤] مالك بن مغول، عن طلحة بن مصرف، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث يجلين[٥] البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجارى، وإلى الوجه الحسن** ».

أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس 3.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب 4: أخبرنى محمد بن أحمد بن يعقوب، أنبأنا محمد ابن نعيم الضبى، أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن هارون الشافعى، حدثنا[٦] أحمد بن

---

(١) فى الأصل: بلدرها. ولعله تصحيف من الناسخ.
(٢) هذه اللفظة مثبتة من ب.
(٣) فى ب، جـ: أنبأنا.
(٤) فى الأصل: بن. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من بقية النسخ المخطوطة. وشعيب بن حرب يروى عن مالك بن مغول. انظر: تهذيب الكمال للمزى (١٢/ ٥١٢).
(٥) فى الأصل: يجلبن.
(٦) فى ب، جـ: أنبأنا.

1هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى، لغوى من الأئمة. يذكر خطه مع خط ابن مقلة. توفى سنة ٣٩٣ هـ.

2 هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبى الطهمانى النيسابورى، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، أخذ عن نحو ألفى شيخ. توفى سنة ٤٠٥ هـ.

3 لم نجده عن ابن عمر فى النسخة التى بين أيدينا من مسند الفردوس، وإنما فيها عن على بن أبى طالب كما سيأتى.

4 هو أبو بكر، أحمد بن على بن ثابت البغدادى، المعروف بالخطيب، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، مولده فى غزية بين الكوفة ومكة، ومنشؤه ووفاته ببغداد. توفى سنة ٤٦٣ هـ.